حكايات أندلسية

٣

خيل قرطبة







حكايات أندلسية ، مجموعة قصصية رائعة فيها يعرض المؤلف صورة من تاريخ المسلمين في الأندلس في صورة قصصية، وبأسلوب ميسر جذاب، فأنت عندما تبدأ القراءة لن تستطيع التوقف إلا في نهاية القصة، ثم تعاود القراءة مرة ومرة، وسيأخذك المؤلف في رحلة إلى طبيعة الأندلس الخلابة، وستقف معه لتشاهد قصورها العامرة، ومدنها قرطبة، طليطلة، قبطيل......... ستعتلي خيل قرطبة، وتنبهر بشخصيات لا ينساها تاريخ الأندلس.

فمن وعى التاريخ في صدره أضاف أعمارًا إلى عمره

الناشر



حكايات أندلسية

٣

خيل قرطبة

حكايات أندلسية ٣

خيل قرطبة

تأليف

محمد عبد الفتاح حسين عيسى



الإدارة: ١٢٩ الزهراء - مدينة نصر - القاهرة
تليفاكس: ٢٤١١١٤٤١ ٠٢ ٠٠٢ - محمول: ٠١٦٨٨٣٣٥٢٥
مركز التوزيع: ٣ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر - القاهرة
هاتف: ٢٥١٤٩٦٣٣ ٠٢ ٠٠٢ - محمول: ٠١٦٨٨٣٣٥٢٤

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٩/٢١٠٢٥
الترقيم الدولي
I.S.B.N. 978-977-489-031-4



خيل قرطبة

تأليف
محمد عبدالفتاح حسين عيسى




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كانت تفكر وهي خارجة من السرداب الضيق في ذلك الغريب الذي جلس يكتب في نهم، عجيب أمره هناك من يقضي كثيرًا من وقته في اختيار كلماته، لكنه بمجرد أن أمسك القلم حتى شرع في الكتابة كأنه يختزن في ذهنه ذاكرة أمة تخشى الضياع.

ووصلت إلى مخرج السرداب الضيق الذي كان يختفي داخل خزانة مبنية في أحد جدران البيت

ممثلاً أحد أركانها، وأعادت الجدار الخشبي الذي يستر المخرج، ثم ثبتت على زوائد له حوامل خشبية؛ ليكتمل مظهر الخزانة المصمت، وبدأت في ترتيب الأطعمة عليه عندما سمعت صوت الجنود القشتاليين وقد ارتفعت أصواتهم خارج البيت:

"لقد رايته وهو يدخل هذا البيت، مستحيل أن تخدعني عيني"

"لا تحاول تبرير فشلك في ملاحقة الرجل"

"أقسم لك أن هناك خدعة ما"

"أنا أشعر أن هذه الفتاة مخادعة، ولكننا قلبنا كل حجر في البيت ولم نجد شيئًا"

"ألم أخبرك أن هناك خدعة؟"

"ولذا كانت دواوين التفتيش، لتتبع هؤلاء

المخادعين"

"إذاً يا سيدي امنحني فرصة ثانية لتفتيش الدار وسأجده هذه المرة"

"إنك هكذا تضيع الوقت هباء مما سيعطيه الفرصة للهروب"

"وقد يوقعه بأيدينا"

أشار إليه قائده بالموافقة، فانطلق الرجال ليدفعوا الباب بأقدامهم الثقيلة، ويقتحموا البيت في همجية، حين كانت هي تغلق الخزانة واستدارت لتستند إليها في رعب فأحاطوا بها

"لتعلمي أيتها الأخت فلورندا أنك لو كنت تحاولين خداعنا فلن تنجي بفعلتك هذه"

نظر إليها آخر بوحشية:

"نعم فدواوين التفتيش معدة لكشف خداع المخادعين"

ردت في ذعر:

"أنا لا أعرف عن أي شيء تتحدثون؟"

"عن الفتى الذي دخل بيتكم منذ قليل"

"لقد أخبرتك من قبل أنني أحيا هنا وحيدة مع أمي المريضة، وأظن أنك شاهدت ذلك بنفسك"

أمسك بقبضته الشديدة وجنتيها:

"أعلم ذلك ولكنني واثق من أن هناك خدعة خلف هذا الأمر"

وامتدت يده الأخرى لتمسك بالصليب المتدلي من رقبتها:

"ولن تنجح خدعتك طويلاً أيتها الأخت

المباركة"

وجذبها بعيدًا عن باب الخزانة

"لقد ذكرت من قبل أن هذه خزانة الطعام"

"نعم هل ستعيد بعثرته من جديد لقد أوشكت بالكاد على إعادة ترتيبه"

"إذًا لنر من جديد ماذا عند الأخت المباركة من طعام"

ونظر إليها في خبث، وامتدت يده لتفتح الخزانة:

"يبدو أن طعامكم لذيذ"

ولمحت في عينيه نظرة ذئب يستعد لالتهام فريسته، ولمحت يده تمتد داخل الخزانة فهوى قلبها بين قدميها.

* * *

تاجر من طليطلة

دخل كارلوس إلى بيته فى ساعة متأخرة من الليل وقد بدا على وجهه إرهاق يوم طويل، ولكنه ما لبث أن فتح حقيبته وأخرج منها مجموعة من الأوراق ونظر إليها في شغف، إنه لا يعرف كيف أقنع بروفسور "خوسيه" أن يترك له هذه الأوراق، إن لهجته المتعالية لا زالت

ترن في أذنه:

"الليلة فقط كارلوس، الليلة فقط"

لكن النوم يداعب عينه:

"يا للسماء إليك عني أيها النوم".

وأسرع ليغسل وجهه ليطرد عن عينيه الكرى، وأبدل ثيابه في خمول وهو يعد لنفسه كوبًا من القهوة ثم أمسك بالأوراق واندس في الفراش، وارتشف بعض القهوة وهو يطالع الأوراق التي في يده

"يستأنف كاتب المخطوطة في هذه الصفحات بقية الأحداث التي ارتبطت بحملة الفايكنج على سواحل الأندلس"

* * *

هزلت أصداء وصول المجوس إلى مدينة

شذونة أرجاء الأندلس، وسرت موجة من القلق بين مدنها؛ مما دفع الأمير عبد الرحمن أن يجتمع برجاله لمناقشة كيفية التصرف مع هذا البلاء الذي مافتئ أن عاد من جديد بعد رحيله عن أشبونة، واستطاع الحرس الواقفون خارج مجلسه تمييز صوته الغاضب:

"ماذا حدث لنا؟ هل عجزنا عن رد مجموعة من الهمجيين عن أراضينا؟"

"إنهم يعتمدون على كوننا لا نستطيع الوصول إليهم في البحر"

"أنا أتحدث يا نصر عن شذونة؛ لقد تجاوز خطرهم الساحل وتوغلوا إلى عمق الأندلس"

"إن نصر مُحقٌ يا أمير فتفوقهم في ركوب البحر يسَّر لهم مفاجأة الثغور والانسياب من

خلالها"

"كان ذلك أدعى لأخذ الحيطة بالثغور يا ابن شهيد"

"مهما اتخذنا من حيطة لابد من وجود نقطة ضعف خافية عن عيوننا"

"ولماذا لا تكون كل ثغورنا كالأشبونة؟"

"ليس كل عمالك وهب الله بن حزم يا أمير"

"هل معنى ذلك أن نجلس لننتظر خطواتهم المقبلة؟"

"لم أقصد يا أمير، ولكن الحل الأمثل هو قطع الطريق على كل من يسلك هذا المسلك"

"ماذا تريد أن تقول؟"

"الأيام التي قضيتها في أشبونة كشفت لي عن نقطة ضعف خطيرة في جيش الأندلس يا

أمير"

"أننا لا نمتلك أسطولاً"

"هدى الله الأمير إلى الصواب دائمًا"

"ولكن إنشاء أسطول سيستغرق الكثير من الوقت في حين أن المجوس يتقدمون"

"إنا نستطيع رد هؤلاء كما رددناهم من قبل؛ لقد خبرتهم في القتال وأعرف كيف نجابههم، ما أريده هو قطع الطريق على أمثالهم أو عليهم في المستقبل؛ لأننا لا نعرف مدى قوة من سيأتي بعدهم؛ لذا يجب أن نجتث المشكلة من جذورها"

عندئذ تدخل نصر الفتى في الحديث:

"إن أمر الذين نزلوا بشذونة هين، وسيحتشد لهم المجاهدون من المدن المحيطة"

عاد ابن شهيد ليكمل حديثه:

"وخيل قرطبة مستعدة لدعم أهل شذونة"

كانت نظرة الغيرة واضحة في عين نصر الفتى، فأسرع قائلاً ليصرف انتباه الأمير عن عيسى:

"لقد حالفني الحظ في أن أجد شخصًا يعرف أمورًا لا نعرفها عن هؤلاء المجوس"

نجحت كلمات نصر في جذب انتباه الأمير

"أفصح يا نصر"

"إنه تاجر من طليطلة بلغني أنه يتحدث بخبر المجوس فأحضرته إلى سيدي الأمير"

"وأين هو؟"

"ينتظر بالباب يا أمير"

"أدخله على الفور"

توجـــه نــصر إلى البـــاب ليعــود مــصطحبًا شخصًا بـدت عليـه الرهبـة، وعلـى الـرغم مـن مظاهـر الثراء البادية عليه إلا أن الانبهـار كـان قـد غمـر وجهـه لعظمـة مـا يـرى في قصـر الأمـير عبدالرحمن:

"السلام على أمير الأندلس"

"وعليكم السلام، بلغنا أنك تتحدث بـأمور عن المجوس"

"لقد وردت إلينا أخبـارهم عن طريق التجـار الجلالقة الذين يفدون على طليطلة وأحوازها"

"ماذا يقولون؟"

"إنهم يتحدثون عن أقوام قدموا من الشمال حتى إنهم يسمونهم: الأردمانيون"

"الأردمانيون"

"يقولون إنها تعني في لغتهم رجال الشمال"

ورمق الرجل نظرات الترقب في عيون الجالسين فاستطرد:

"يقولون إنهم مقاتلون أشداء بارعين في ركوب البحر لا ينزلون في مكان إلا نشروا فيه الخراب والدمار، ويحكى أنهم نزلوا بلاد الفرنجة وبلاد الجلالقة وعاثوا فيها فسادًا"

"هل نزلوا في بلاد الجلالقة؟"

"كان ذلك منذ ثلاثة أشهر تقريبًا، ولكن ملك الجلالقة راميرو أرسل جيشًا ردهم وأحرق مراكبهم"

تعجب عيسى بن شهيد من كلام الرجل:

"منذ ثلاثة أشهر أي قبل أن يصلوا أشبونة مباشرة، إذًا كم كان عدد المراكب التي

تحرق ويتبقى منها كل هذا العدد؟"

شعر التاجر بالحيرة:

"هذا ما يتناقله الجلالقة، ويقولون إنهم يركبون مراكب طويلة قليلة العرض تقل الكثير من الجنود"

"لقد رأيت ذلك بنفسي"

انتظر الجالسون أن يضيف الرجل شيئًا آخر ولكنه صمت، فأدرك الأمير أنه لا يعرف شيئًا آخر؛ فأشار إليه بالانصراف وما إن خرج الرجل حتى التفت إلى ابن شهيد:

"أريدك أن تخرج للقاء هؤلاء القوم قبل أن يواصلوا تقدمهم"

"ومتى أخرج يا أمير؟"

"هل تستطيع أن تخرج بخيل قرطبة غدًا في

الصباح؟ سيكون أمامك يوم كامل لتستعد للخروج"

"السمع والطاعة يا أمير"

"وأنت يا نصر أريدك أن تجمع لي الرجال القادرين على إنشاء أسطول بحري قوي"

"السمع والطاعة يا أمير"

"متى تستطيع فعل ذلك؟"

"أحتاج إلى خمسة عشر يومًا"

"هذا كثير يا نصر"

"سيدي أنا سوف أرسل إلى عمالك في أنحاء الأندلس لجمعهم"

ظهر على الأمير الاستغراق في التفكير:

"اليوم هو الرابع عشر من المحرم هذا يعني أننا لن نبدأ قبل بداية شهر صفر"

"سأبذل ما بوسعي يا أمير لأنجز ذلك قبل هذا الموعد"

"أما أنت يا ابن شهيد فتستطيع الانصراف لتستعد لمعركتك القادمة"

"السمع والطاعة يا أمير"

* * *

توغل جيش النورمان فى أنحاء أشبيلية حاملين معهم الخراب والدمار، فأشعلوا النار في الدور وقتلوا كل من قابلهم من أهل المدينة، وخرج أهل المدينة هائمين على وجوههم يبغون الفرار من هذا الجحيم الذي صبّحهم دون موعد، واتجه بعضهم إلى القلعة حيث أمير المدينة يبغون الحماية، في حين أن الذعر كان قد اقتحم أسوارها، ورأى كل من بها أميرها

وهو يصعد مهرولاً إلى أحد الأبراج العالية ليرى ماذا يحدث خارجها وتبعه قائد جنده ليسمعه وهو يردد في أسى:

"كيف وصل هؤلاء الملاعين إلى هنا؟"

"لا أدري يا مولاي ولكنهم لم يظهروا إلا عند الفجر"

"وكيف فعلوا ذلك بهذه السرعة؟"

"لقد اقتحموا المدينة في غفلة من أهلها"

"أنا لا أقصد هذا بل أقصد كيف وصلوا إلى أشبيلية دون أن نشعر بهم"

"لقد أبحروا ليلاً في نهر الوادي الكبير"

"إذًا فقد كان علماء أشبيلية محقين"

أطرق قائد الجند برأسه لا يجد جوابًا:

"من الواضح أننا خدعنا أنفسنا"

"لماذا تقول هذا يا أميرٍ؟"

"نعم خدعنا أنفسنا ، ادعينا أننا قادرون على قتالهم وصدقنا ذلك، ادعينا أن بلادنا آمنة وصدقنا ذلك، كذبنا على أنفسنا وصورنا لها أن جنودنا مستعدون لأي خطر وصدقنا ذلك، لقد خدعنا أنفسنا حتى استيقظنا على الحقائق المريرة، لقد استيقظنا على الهزيمة والأشلاء المحترقة، استيقظنا على الخراب والدمار والموت"

عاد قائد الجند إلى الصمت:

"أخبرني أنني واهم أخبرني أن ما حدث مجرد وهم"

عاد الأمير للنظر إلى المدينة المشتعلة:

"إنني أتجرع الآن نتيجة خطئي"

"لقد شارك الجميع في هذا الخطأ يا أمير"

"ولكن أنا المسئول الأول عنه، أتعرف لماذا؟ لأنني انخدعت وصدقت أن الأمور على ما يرام، كنت أعرف أنها خدعة ولكن أردت أن أصدقها"

"لقد وقع ما وقع يا أمير ولا فائدة من العذل والعتاب"

"صدقت، لا فائدة من العذل والعتاب، لذا يجب أن أتحمل مسئوليتى"

نظر إليه القائد بعدم فهم:

"أعد الجند للخروج للقتال"

"سأقودهم فورًا إلى المعركة"

"بل سأقودهم أنا"

"إن هذا يعرضك للخطر يا أمير"

"يجب أن يرى الناس أنني معهم في قلب المعركة"

"ستكون معهم أيضًا وأنت تديرها من هنا"

"هذا الأمر غير قابل للنقاش"

"يا أمير"

"لقد انتهت حياتي يا رجل فأي أرض ستقلني وأي سماء ستظلني؟ لقد هزمنا يا رجل"

"بل سننتصر بإذن الله"

"هل تظن ذلك حقًا، ولو افترضنا ذلك هل سيتهاون الأمير عبدالرحمن فيما حدث؟ أنا مقضي عليَّ في كل الحالات، لأقضي شهيدًا في ميدان المعركة خير من هذا العار"

"هل أرسل إلى الأمير عبدالرحمن؟"

"بالطبع يجب أن يعرف في أسرع وقت"

"السمع والطاعة يا أمير ولكن ماذا سنفعل مع أهل المدينة المحتشدين أمام أبواب القلعة؟"

"أدخلوهم ليحتموا بها، أدخلوا كل من يأتي من أهل المدينة، وكثفوا عدد الجند على الأبواب والأسوار"

ونظر في حزن إلى المدينة المشتعلة:

"وليخرج معنا بقية الجند لمحاولة حفظ ماء وجوهنا وإنقاذ ما بقي من المدينة".

* * *

السقوط

تدافع الناس أمام أسوار القلعة في ذعر وعلت طرقاتهم على الأبواب المغلقة، وشعر الحرس بتوتر شديد وعدم قدرة على اتخاذ القرار المناسب وازداد تحفزهم خلف الأبواب، حتى ارتفع صوت أحد الفرسان من خلفهم:

"افتحوا الأبواب، افتحوا أبواب القلعة لأهل المدينة"

كان الحرس في أمس الحاجة لسماع هذه الكلمات، وقبل أن يتمها الفارس أسرعوا برفع المزلاج الضخم ليندفع الباب مفتوحًا على مصراعيه تحت وطأة اندفاع أهل المدينة المذعورين وسط صيحات الحرس التي تطالب الناس بالهدوء، ولكن هيهات كيف يهدأ من يفر من الموت. وأسرع الحرس والجند محاولين اختراق هذه الحشود للخروج خارج الأبواب لتأمين دخولها ومنع وصول المجوس إليها، والتدافع يتزايد مع الصرخات المذعورة القادمة من الخارج:

"لقد أدركنا المجوس"

ومع تزايد التدافع تساقط الضعفاء تحت الأقدام وارتفعت صرخاتهم التي امتزجت مع بكاء الأطفال ليضيع بينهم صوت الحارس

الذي نادى:

"افسحوا الطريق للأمير"

وانتبه الجميع إلى مجموعة الفرسان التي برزت من مؤخرة القلعة لتشق طريقها بين اللاجئين حتى وصلت إلى خارج القلعة لتتقابل مع جحافل المجوس المتقدمة. وانسل أحد الفرسان مبتعداً والباقون من خلفه يصدون عنه المطاردين، والتفت الأمير الذى خرج بين الفرسان ليرى أن بعض المجوس يتقاتلون مع الحرس على الأبواب لصدهم عن اتباع الناس إلى الداخل فصاح في الحراس:

"أغلقوا الأبواب، أغلقوا الأبواب"

وتدافع الناس من خلف الأبواب لإغلاقها ليعلق الفرسان وبعض الحرس خارجها بين

جحافل المجوس المتعطشة للدماء، وسمع الفرسان أميرهم وهو يصيح بهم:

"الشهادة، الشهادة لقد فتحت الجنة أبوابها لكم"

وامتزجت صيحات المجوس بتكبيرات الفرسان، وامتزجت الدماء على أرض المعركة غير المتكافئة بين عدد قليل من الفرسان وأعداد المجوس المتزايدة أمام أبواب القلعة، ومن بعيد نظر الفارس - الذي انطلق تاركًا القتال في أرض المعركة - من خلفه فى ألم ليرى الدائرة وقد بدأت تدور على رفاقه، ولم يكن من الصعب عليه توقع فناء هؤلاء المقاتلين العالقين خارج القلعة، فناء كامل بكل ما تحمله الكلمة من قسوة، وغامت عيناه وحث

فرسه على الإسراع أكثر وأكثر.

* * *

كانت الحسرة تملأ عين هلفدين، وهو يراقب الشمس التي أشرفت على المغيب للمرة الثالثة تحت أسوار مدينة شذونة تاركةً إياه للوم زعماء العشائر الذين انضموا إليه في انشقاقه عن قائدهم المحنك، ولم يجد في نفسه عزمًا ليظل واقفًا فجلس على أحد الصخور وهو يرمق التفافهم من حوله بانكسار حتى أسعفه القول الذي جرى على لسانه:

"أنا لا أدري لماذا العجلة؟ إن الطريق مازال مفتوحًا أمامنا"

"أي عجلة هلفدين؟ إن لنا سبعة أيام في هذا الأمر"

رد هلفدين مستهزئًا:

"يا للهول سبعة أيام إنه لدهر طويل"

"هل تهزأ مني هلفدين؟!"

"بل أريد أن أذكركم أننا مكثنا هناك تحت أسوار هذه المدينة الملعونة ثلاثة عشر يومًا دون أن نحرز أي تقدم، ولم يجرؤ أحدكم على مواجهة روفوس، ومن قبلها جعلنا نترك النصر الذي حققناه بلا سبب حقيقي وتبعتموه كالقطيع"

"وها نحن هلفدين قد تبعناك فماذا فعلت؟"

"لقد تبعتموني بكامل إرادتكم وباختياركم، لم أجبركم على شيء على خلاف ما كان من روفوس"

"هل كان روفوس هكذا حقًا؟"

"لقد سئمت من هذا الهراء أخبروني ماذا تريدون؟"

"نريد أن نعرف ما الذي يدور في رأسك؟"

"حقاً ألا تعرفون ما الذي يدور في رأسي؟ هل قطعنا كل هذه المسافة من بلادنا وحدث ما حدث لتسألوني ما الذي يدور في رأسي؟!! إن ما يدور في رأسي هو ما يدور في رءوسكم يا سادة"

"عندما خرجنا من بلادنا مع روفوس كنا نعرف ما هو هدف رحلتنا، من الصحيح أن الآلهة تخلت عنا قليلاً، لكننا كنا نعرف ماذا نفعل، ويهدد الإله ثور مراكبنا، ولكننا على دراية بما نريد، أسوار المدينة تستعصي علينا ولكننا حاربنا بجسارة إلى اللحظة التي

أدركنا عجزنا أمامها، وأكملنا رحلتنا خلف هدفنا، هل تريد أن تعرف ما الذي كان يدور في رءوسنا أثناء كل هذا؟ لقد كنا نعد أنفسنا في رحلة صيد ليس هدفها مجرد صيد الأسماك ولكن صيد كل ما يمكن صيده من أناس وثروات وأرض"

"وما الذي جدَّ على هذا؟"

"الذي جدَّ أنك أردت أن تستعرض قوتك، أن تثبت أنك أجدر من روفوس على القيادة، فجعلتنا نتبعك إلى حصار مدينة ومنه إلى أخرى، لا تمكث أمام أي منها أكثر من ثلاثة أيام، نخسر ما نخسر ثم نرحل، لا نعرف لماذا جئنا ولماذا رحلنا ولماذا خسرنا"

"أنا لا أرى فرقًا بين ما فعلنا وما فعل

روفوس من قبل"

"بل هناك فرق. فأنت تحارب دون هدف، تبتغي فقط إيقاع أكبر قدر من الخسائر بعدو متحصن خلف أسواره، عندما تصطدم بالأسوار ترحل بعيدًا تاركًا له أرضه في ملل، باحثًا عن مكان آخر، هل أخبرك لماذا؟ إنك تنتظر أن تلقي الصدفة في طريقك مدينة هينة غير حصينة"

"هل تريدون أن نكرر ما حدث من قبل، نمكث أيامًا طوالاً أمام أسوار مدينة ثم لا نجد إلا الخسارة؟"

"مكوثنا أمام الأسوار المرة الأولى كان لاختبار قدرة أهل هذه البلاد، ولكننا نرفض أن نختبر قوتنا تحت أسوار كل مدينة فنفقد

هيبتنا بين أهل هذه الأرض"

"إذًا فأنتم تريدون الرحيل تاركين كل ما حققناه؟"

"وما الذي حققناه، هل تظن أن توغلنا في أرض عدو يترصدنا من تحت كل حجر إنجاز؟"

"حتى هذا فشل فيه روفوس"

"بل نجح في ألا يورطنا في ذلك"

"إذًا لنتقدم قليلاً ولسوف نجد المكان المناسب"

"بل نعود إلى روفوس فهو أكثر دراية منا ولتسمعها مني هلفدين"

وضغط على كلماته مظهرًا كل كلمة:

"هو أجدر منك بالقيادة"

اعتصر الشعور بالهزيمة قلب هلفدين وهو يستمع إلى هذه الكلمات:

"إذًا فقد انتصر روفوس"

"إن نجاح رحلتنا هلفدين قائم على تجنبنا الأمور الشخصية، لا نتصارع حول من الأصلح، على الرغم من أن كُلاً منا يظن نفسه الأجدر بالقيادة، بل نتبع من يقودنا على الرغم من كل خلافاتنا لنصل إلى النصر"

وقف هلفدين وهو يقلب نظره في وجوههم:

"إذًا دعوني قليلاً حتى يستعد الرجال للرحيل وسأخبركم وقتها بقراري"

"على الرغم من كون الأمر لا يستحق الانتظار ولكن لن يضيرنا انتظار هذا الوقت القصير"

انطلق الرجال تاركين هلفدين خلفهم في حيرة من أمره، إنه يعلم أنه لو أصر على استكمال طريقهم فسيرفضون، لقد كان هو الأسبق في هذا الأمر، لقد صار قراره تحصيل حاصل عديم الجدوى، فمن الواضح أنهم قرروا العودة إلى روفوس، ولن يثنيهم أحد عن قرارهم، وضرب رأسه في ألم بكفه، منذ أيام خرج هؤلاء الرجال خلفه فشعر بالقوة، لقد صار زعيمًا يتبعه الرجال، وما إن واصل طريقه حتى وجد الأسوار من جديد تحول بينه وبين الزعامة، هل يكرر ما اعتبره خطأً من روفوس؟ هل يقف أمام المدينة؟ إذًا ما التجديد الذي أحدثه هو؟ حاول اقتحامها وفشل: إن المدينة حصينة مبنية على شبه جزيرة، كل ما

نجح فيه هو إحراق بعض الزروع وقتل أصحابها بعيدًا عن الأسوار.

وقرر ألا يضيع الوقت فتقدم داخل هذه الأرض لينزل بهذه المدينة التي بلغ أهلها ما حدث مع سابقتها؛ فيجد أن أهلها قد تحصنوا بأسوارها، انتسف الزروع؛ فعل ما فعل مع الأولى، ولكنه لم يحقق شيئًا؛ لذا كان يجب ألا يضيع الوقت، لكن ها هم من تبعوه انقلبوا عليه، لقد أدرك أن روفوس هو الأجدر بالقيادة وأنه مازال صغيرًا، ولكن كيف سيستقبل روفوس عودته؟

ليترك هذا إلى حينه فها هم رجال العشائر مقبلين لسماع قراره النهائي بالعودة، وترك هاتين المدينتين اللتين لم يتح له حتى أن يعرف

أن أهلهما يطلقان عليهما: قادس وشذونة.

* * *

كان ابن فرناس جالسًا أمام أحد كتبه يدون فيه ملاحظاته، وهو يردد ما يكتب بصوت عالٍ حتى لا يضيع منه عندما دخل عليه خادمه قائلاً:

"سيدي إن القائد عيسى بن شهيد يطلب لقاءك وفي صحبته رجل يبدو عليه أنه من الصقالبة"

"عيسى بن شهيد ألا يستعد الآن للخروج للقاء المجوس"

ورفع رأسه إلى السقف متأملاً وهو يعبث بلحيته:

"إن هذا يجعل وقته أضيق من أن يأتي

لزيارتي لا بد أن هناك أمرًا هامًا هو الذي قاده إلى هنا ، أدخله يا فتى"

".أمر سيدي"

دخل ابن شهيد وفي صحبته رجل أشقر الشعر ينسدل شعره فوق كتفه:

"السلام عليكم يا ابن فرناس"

قام ابن فرناس من خلف مكتبه مرحبًا :

"وعليكم السلام يا ابن شهيد أي ريح طيبة ألقت بك عندنا"

نظر ابن شهيد إلى الرجل الذي في رفقته ثم قال :

"الله وحده يعلم إن كانت ريحًا طيبة أم لا"

وجهت نظرة ابن شهيد انتباه ابن فرناس للرجل فأمعن النظر فيه باهتمام:

"إذا لم يخدعني ذكائي فهذا الرجل من المجوس"

"أصبت يا ابن فرناس"

"إذًا فالأمر خطير كما توقعت"

"ليس إلى هذه الدرجة"

"لنجلس لنتكلم"

جلس الرجلان وأشار ابن شهيد إلى المجوسي فجلس معهم: "الأمر باختصار يا ابن فرناس أن هذا الرجل كان قد سقط أسيرًا أمام ميناء أشبونة في أيدي أهلها عندما كان يتجسس على المدينة"

"جاسوس!!"

"لقد زج به ابن حزم في السجن، لكنه لفت انتباهه في كونه يستمع إلى الحديث كأنه

يفهمه"

نظر ابن فرناس إلى المجوسي:

"هذا واضح"

"وعندما أحضره لي لمست نباهة فيه، لقد كان يكرر أحاديث سمعها من ابن حزم ومن المساجين الذين رافقهم، لقد بدا عليه وقتها أنه لا يفهمها لكنه كان سريع الحفظ"

"فتوسمت بالطبع أنه قد يجيد العربية، وتعرف منه ما يخفى علينا من أمر المجوس"

"ولقد صدق حدسي يا ابن فرناس ففي هذه الفترة القصيرة صار يمتلك حصيلة لغوية تؤهله لبعض الأحاديث القصيرة"

"هل تنوي عرضه على الأمير عبدالرحمن؟"

"بالطبع، ولكن عندما يصير قادرًا على

الحديث بصورة تسمح للأمير بفهمه"

"وأنت الآن متجه إلى شذونة ولا تمتلك الوقت للإعداد لذلك"

ابتسم ابن شهيد :

"لا حرمنا الله من ذكائك يا ابن فرناس"

"إذًا لماذا أنا؟"

"لأنني أعرف ولعك بكل ما هو جديد وبكل معرفة لم يسبقك إليها أحد ، ناهيك عن ثقتي المفرطة بك" .

"وما الذي يضمن لك ولاءه وأنه لن يكذبنا أو يؤذينا؟"

"لأن السبيل انقطع به، وليس أمامه بديل"

"كما فهمت منك هو على الأقل يفهم بعض حديثنا، ولعله يدرك الآن أن قومه قد عادوا من

جديد لغزو أراضينا"

"لقد طرحت عليه اختيارين أن يكون معنا"

وأطبق قبضته في شدة وكأنه يعتصر شيئًا

واستطرد:

"أو لا يكون إطلاقًا"

فقال له ابن فرناس مداعبًا:

"يا له من اختيار عادل"

"لقد قضى في السجن أيامًا ورأى مهانة الأسر ثم ذاق طعم الحرية، ورأى الحياة المترفة التي قد يحظى بها هنا؛ هل تظنه يضحي بكل هذا؟"

"لكن عودة المرء إلى أرضه لا يضاهيها شيء"

"هذا لو كان هناك بصيص أمل"

"لا أعرف إن كان ذلك من الصواب، ما اسمه؟"

"اسأله"

"ما اسمك؟"

"توبا"

"هل تفهم حديثنا يا توبا؟"

نظر إليه توبا في حيرة! فأعاد سؤاله مع تحريك يده لتعبر عن بعض كلماته:

"هل تفهم حديثنا يا توبا؟"

"قليلاً"

"هل تعرف لماذا أنت هنا الآن؟"

"سيدي عيسى يقول إن توبا يبقى مع سيدي ابن فرناس"

"تستطيع الانصراف أنت يا ابن شهيد؛

فعرضك لا يقاوم"

"إذًا فقد قبلت"

"هيا لتلحق برجالك؛ فأمامنا أنا وتويا الكثير من العمل"

نظر تويا إليه وابتسم ابتسامة حاول أن تكون ودودة لكنها لم تكن أبدًا.

* * *

امتلأت طرقات أشبيلية بالأشلاء المتناثرة، ولا تكاد تلمح فيها حركة إلا للكلاب الضالة، وتصاعدت أعمدة الدخان من أطلال البيوت المحترقة لتحجب ضوء القمر، ورفع أحد الكلاب رأسه كأنما يستمع لصوتٍ ما ثم جرى مسرعًا عندما هوت بالقرب منه كتلة خشبية مشتعلة من سقف أحد البيوت، وظهر

من خلف جدرانه مجموعة من الفتية يسيرون على أطراف أصابعهم:

"إنا لله وإنا إليه راجعون"

"لقد دمر الكفرة كل شيء"

"إنني لا أكاد أصدق أن هذه أطلال بيتنا الحبيب"

"لقد أخطأنا عندما تركنا لهم المدينة وفررنا"

"لو بقيت لجاورت أشلاؤك هذه الأشلاء"

ووجه حديثه لرفيقهم الثالث:

"ألا تتفق معي في هذا؟"

لم يستطع الفتى الرد، كان يسير بينهم كأنه جسد بدون روح، وعيناه تدور في كل مكان في رهبة حتى وقعت عيناه على شيء جذب انتباهه فتحرك نحوه في سرعة وانكب

على الأرض ممسكًا به، لقد عرفه جيدًا ، واجتمعوا حوله في سرعة ليروا ماذا وجد؛ فإذا بأنفاسه تتسارع وهو ممسك بكف باق من جسد محترق؛ لقد عرف صاحب هذا الكف لقد عرفه جيدًا ، وهمس أحد رفاقه في ذعر:

"يا للهول إنها كف أمه"

وما إن طرقت الكلمة أذن الفتى حتى أجهش في بكاء حار؛ فجذبه رفاقه في قوة ليبتعدوا قبل أن يجذب بكاؤه الانتباه إليهم:

"أسرعوا ، أسرعوا"

"هل تسمع هذه الأصوات؟"

"ما هذا؟ ما هذا؟"

"إنها أصوات البكاء تنبعث من كل أرجاء أشبيلية"

* * *

أغث حِمص يا أمير

وقف روفوس في خيلاء أمام خيمته ينظر إلى القلعة في ضوء القمر:

"موعدنا غدًا أيتها القلعة"

"لقد فني جنودها الذين تصدوا لنا يا سيدي"

"لكنهم أخرونا كثيرًا راجنار"

"الحق يقال، إنهم استبسلوا في القتال

بصورة لم أعرفها من قبل يا سيدي"

"لقد قاتلوا حتى الموت كأنهم يطلبونه حتى

إنهم لم يفكروا بالعودة للاحتماء بالقلعة"

"إن الباب كان قد أغلق دونهم"

"إنهم حتى لم يحاولوا دق الأبواب"

"هل تظن يا سيدي أن هناك جندًا آخرين

بداخلها"

"قليل من الحرس مع كثير من أهل المدينة

الهاربين شيء غير ذي بال"

"إذًا لماذا لا نقتحمها الآن؟"

"ماذا دهاك راجنار؟ الرجال متعبون من

مجهود يوم شاق؛ دعهم ليحظوا بقسط من

الراحة، وفي الصباح لن يستغرق اقتحام القلعة

سوى ساعات قليلة، دعهم الآن يلهون بالذهب

حتى ترى بريقه في أعينهم غداً"

"لقد حمل الرجال الذهب إلى المراكب"

"والأسرى وبقية الغنائم؟"

"أحضرناهم إلى جوار معسكرنا كما أمرت"

"هل أغلقتم الطرق المؤدية إلى القلعة؟"

"كلها يا سيدي، لقد رضيت عنا الآلهة أخيراً يا سيدي"

"نعم رضيت راجنار"

"لم يكن ينقص النصر إلا اجتماع بقية العشائر"

أنت حزين من أجل هلفدين ولودبروك"

"بل حزين للفرقة يا سيدي، ثم إن .."

"ثم إن هلفدين ولودبروك صديقاك"

"نعم يا سيدي"

"لا تحزن راجنار إنهم سيعودون"

"هل هذا ممكن يا سيدي؟"

"هل كذبتك في حديث من قبل راجنار؟"

ونظر إلى القلعة من جديد وخلع خوذته ذات القرنين ليبدو من تحتها شعره الأشقر الكثيف ذو الضفائر، وصاح في رجاله:

"يا رجال الشمال الشجعان، احتفلوا بنصركم"

وتصايح الرجال في سعادة في حين تركهم ودخل إلى خيمته.

* * *

بدت أصوات الخطوات المسرعة في طرقات قصر الأمير عبدالرحمن بن الحكم بقرطبة

عالية مع الصمت الذي يخيم على المكان في مثل هذا التوقيت الذي يشرف على موعد صلاة الفجر، وصاح الحارس ليعلن وصول الأمير عبدالرحمن، ودخل الأمير عبدالرحمن مجلسه والهرج يسود في المجلس وما إن جلس الأمير على عرشه حتى هدأت الأصوات:

"ما هذا الذي سمعته؟"

أسرع نصر الفتى:

"كارثة يا أمير، كارثة حقيقية"

"ليخبرني أحدكم أن ما بلغني كذب"

"لقد وصل هذا الرسول من أشبيلية منذ قليل"

تقدم الفارس الذي بدا عليه إنهاك السفر وقلة النوم

"أغث حمص يا أمير، لقد سقطت أشبيلية في يد المجوس"

"كيف حدث هذا؟ كيف؟"

"لقد فاجئونا فجر الأمس وخربوا المدينة وقتلوا أهلها"

"وأين كان أميرها؟"

"لقد تركته يقاتل هناك"

"أنا لا أسأل ماذا يفعل، أنا أسأل كيف سمح لهذا بالحدوث"

"إن قدومهم خلال النهر كان مفاجأة"

"ألم نحذركم منهم من قبل؟"

هنا تدخل أحد رجال الأمير عبدالرحمن الحاضرين والذي بدا عليه أنه أحد قادته:

"إن السبب الرئيسي أن مدينة أشبيلية ليس

لها أسوار"

"وهل هذا مبرر يا ابن رستم؟"

"لقد سهل ذلك عليهم اقتحامها"

"وكيف تكون حمص مهبط جنود الشام يوم الفتح بلا أسوار؟ أخبرني كيف بقيت إشبيلية بلا أسوار"

أسكتت لهجة الأمير عبدالرحمن القوية ابن رستم عن الكلام:

"لماذا لا يرد علي أحدكم؟"

"إنه قضاء الله يا أمير"

"تبررون تخاذلكم بقضاء الله يا نصر"

وصمت الأمير عبدالرحمن قليلاً ليستعيد رباطة جأشه، ومسح وجهه وهو يتنهد في عمق:

"عبد الرحمن بقضاء الله راض،

عبدالرحمن بقضاء الله راض"

ونظر إليهم في لوم ثم وجه كلامه إلى ابن رستم:

"أين عيسى بن شهيد الآن؟"

"سيغادر قرطبة بعد قليل مع خيل قرطبة"

"أرسل في إثره يا ابن رستم فورًا وأخبره أن يتوجه إلى حمص ليغيثها"

"وشذونة يا أميرة؟"

"طالما أنهم وصلوا إلى إشبيلية فلابد أنهم غادروا شذونة"

"ليس هذا ضروريًا يا أمير"

"ولكن إغاثة حمص أمر له الأولوية"

"ما يزيد من خطورة الأمر أنهم لو توغلوا بمراكبهم قليلاً لوجدناهم بظاهر قرطبة"

"أصبت يا نصر؛ لذا عليك الآن أن تجهز جيشًا يكون مستعدًا للدفاع عن قرطبة"

"أمر الأمير"

"وأنت يا ابن رستم أسرع قبل فوات الأوان"

"السمع والطاعة يا أمير"

وقبل أن يخرجا لتنفيذ أمر الأمير استوقفهما الأمير ثانيةً:

"يا نصر ابعث إلى كل عمال الكور كلهم بلا استثناء في حشد المسلمين للجهاد"

* * *

بدأ نور الصباح يداعب اجفان أهل إشبيلية اللاجئين بالقلعة فاستجابت له بعض العيون القلقة، ورفع أصحابها رءوسهم في تحفز لترى أرض القلعة التي افترشت بالنائمين حتى لم

يعد موضعًا لقدم، وقد تدثر كل منهم بكل ما وقعت عليه يده، وجذب انتباههم صياح بعض الصبيان الصغار، وإذا ببعض الحرس يحاول أن يتخطى النائمين ليصل إلى هؤلاء الصبية ليداعبهم في ود، وهم يتبادلون النظرات مع زملائهم الواقفين على أسوار القلعة، وقد تدثروا بثياب ثقيلة دون أن تشغلهم تلك المداعبات عن متابعة جحافل المجوس النائمين حول نيرانهم التي أوشكت على أن تخمد بعد ليلة طويلة من السكر والعربدة.

وانتبه الحرس المراقبون من فوق أسوار القلعة إلى هؤلاء الذين استيقظوا من جنود المجوس دافعين زملاءهم لحثهم على الاستيقاظ، وصاح أحد الحرس بصوت مرتفع:

"المجوس يستغدون، المجوس يستعدون"

بدأت صيحات الحارس تنبه النائمين وأسرع بعض المستيقظين لمساعدة الذين حملوا أواني ضخمة وأطباقًا لتوزيع الطعام على أهل المدينة، واندفع قائد الجند الذي لم يكن قد أفلح في الخروج من القلعة لحظة المعركة ليجمع من بقي من جنده، وظل يتحدث معهم طويلاً وهو يشير إلى أماكن عدة في أرجاء القلعة، وانطلق الجند حيث أشار القائد، واجتمع بعض الفتيان المتحمسين حول القائد:

"نريد أن ننضم إلى جندك يا أمير"

ابتسم قائد الجند في هدوء:

"على الرحب والسعة ولكنكم غير مدربين على القتال"

"ولكننا قادرون على حمل السلاح، على الأقل للدفاع عن أنفسنا"

"هل رأيتم ما حدث بالأمس؟ لقد كان القتال حتى الموت"

"ولم يقلل ذلك من رغبتنا في الجهاد لعل الله يرزقنا الشهادة"

"إذًا دعونا نخرج السلاح لكل من يريد أن يشارك"

واتجه القائد مع الفتية إلى خزائن السلاح وانطلق وراءهم كل من عنده القدرة على حمل السلاح، واتجه بعض الجند لمساعدة القائد في توزيع السلاح على الواقفين، وحرك بعضهم السيوف يمينًا ويسارًا بتلك النشوة التى حملها لهم السلاح، وما إن ابتعد الرجال حتى بادر

أحد الجند القائد:

"هل تنوي يا سيدي الخروج للقاء المجوس؟"

"لماذا تقول ذلك؟"

"لأنك قد قمت بتوزيع السلاح على أهل المدينة"

"إن الأمور تزداد سوءًا، وقد ينجح المجوس في اقتحام القلعة، لذا يجب أن يجد هؤلاء ما يدافعون به عن أنفسهم"

"لن يتم هذا إلا على أجسادنا"

"وإلى متى تستطيع القلعة الصمود؟"

"القلعة حصينة يا أمير"

"وهل ستكفي المؤن كل هذا العدد من الناس طوال فترة الحصار؟"

نظر الجندي إلى القائد في حيرة دون أن

يـدرك مـا الـذي يريـده فاسـتطرد القائـد في شفقة:

"إني اتمنى على الله أن يكون الرسول نجح في الوصول إلى أمير قرطبة ويأتينا بالمدد"

"ولو منعه مانع؟"

"وقتها لن يكون امامنا إلا الصمود خلف هذه الأسوار حتى يأتي أمر الله"

"وهل سنخبر الناس بهذا؟"

"فقط يجب أن يعلموا أننا ننتظر المدد من قرطبة"

"سيسألون متى سيصل المدد؟"

"لنخبرهم أن المدد سيصل عند المساء"

"وإن لم يصل؟"

"لنمنيّهم بانتظار الصباح"

سمع الاثنان صوت أحد الجنود وهو يصيح:

"المجوس يدفعون أبواب القلعة بقوة يا أمير"

ابتسم القائد في أسى:

"هل سمعت؟ إننا حتى قد لا ندرك المساء"

وانطلق الاثنان في سرعة إلى أبواب القلعة.

* * *

كاد الشعور بالذعر يلتهم الحرس الواقفين في الشرفات التي تعلو أبواب القلعة عند رؤيتهم جذوع النخل الضخمة التي حملها المجوس ليحطموا بها الأبواب التي ارتجت بشدة تحت وطأة ضرباتهم لتنقل الذعر إلى داخل القلعة

"إنهم يريدون اقتحام القلعة يا أمير"

نظر قائد الجند فيمن حوله:

"أريد من الرماة أن يحتلوا الشرفات فوق

الأبواب لرد هؤلاء المهاجمين"

انطلق الرماة في سرعة ليحتلوا حيث أمرهم قائد الجند، وانطلقت نبالهم لتصيب مجموعة من المجوس المتقدمين تجاه الأبواب، وصاح أحد المجوس:

"إنهم يرموننا بالنبال من فوق الأسوار"

نظر روفوس في حنكة إلى الأسوار وإلى رجاله:

"تراجعوا حتى تبتعدوا عن مرمى نبالهم"

تراجع النورمان إلى الخلف فصاح بهم روفوس

"لتتقدم مجموعة بالدروع مع حملة الجذوع لتحميهم من النبال"

تقدم النورمان تحت دروعهم لتحميهم من

النبال المتساقطة عليهم لتعود ضرباتهم لتزلزل قلوب المحتمين بالقلعة، ونظر قائد الجند الذي كان قد صعد مع الرماة إلى المجوس في قلق والتفت إليه أحد الرماة:

"إنهم يحتمون بدروعهم يا أمير"

"استمروا فى إمطارهم بالنبال"

ونزل مسرعًا إلى رجاله المتجمعين خلف الأبواب:

"ادفعوا الأبواب بقوة حتى لا تتحطم مزاليجها تحت ضربات المجوس"

كادت الضربات تقذف بالرجال الصامدين خلف البواب، وبدأت المزاليج تنهار أمام هجمة المجوس، وظهرت الفوالق بالأبواب:

"يجب أن نوقفهم يا أمير عن ضرب الأبواب

حتى لا يحطموها"

"الحجارة"

"ماذا يا أمير؟"

صاح القائد باللاجئين في القلعة:

"يا رجال، يا أهل المدينة إننا في خطر شديد يجب أن نتعاون في رده وإلا هلكنا جميعًا"

نظر إليه عجوز من أهل المدينة:

"ماذا تريد يا أمير؟؟"

"أريدكم أن تقتلعوا كل حجر تستطيعون اقتلاعه وتحملونه إلى الرجال فوق الأسوار"

"تريد أن تقذفهم بالحجارة يا أمير"

"لتكشف عنهم دروعهم فيستطيع الرماة إصابتهم".

انطلق أهل المدينة في حركة محمومة لخلع

الأحجار من كل مكان واستخدموا كل ما وقعت أيديهم عليه لاقتلاع الأحجار:

"أسرعوا؛ الأبواب تنهار"

تحرك الناس في طوابير أشبه بطوابير النمل على سلالم الأسوار:

"الأبواب تتحطم"

وبدأ الجند في قذف الكتل الحجرية على الدروع في كثافة لتكشف ثغرات للرماة الذين كثفوا رميهم من جديد؛ فتراجع النورمان للخلف لتفادي الرماة، وردد روفوس في غضب:

"ألن ننتهي من هذه الحيل؟"

وارتفع تكبير الرجال فوق الأسوار مع تراجع المجوس، واتجه قائد الجند إلى الرجال خلف الأبواب مشجعًا فقال أحدهم:

"إنهم مصرون على اقتحام القلعة يا أمير"

وقال آخر:

"هل تظن أنهم سيعاودون الكرة؟"

"ولكنكم ستصمدون أمامهم؛ أليس كذلك؟"

"المهم أن تصمد الأبواب يا أمير"

لم يكد الجندي يتم عبارته حتى ارتفع صوت أحد الواقفين فوق الأسوار:

"إنهم يقذفون الجذوع الخشبية المشتعلة تحت الأبواب"

"يا للهول إنهم يحرقون الأبواب"

ودارت عيناه في هلع:

"يا رجال احملوا المياه في سرعة إلى الأبواب"

أسرع أهل المدينة حاملين الدلاء والقرب في

سرعة للأبواب

"اسكبوها بغزارة على البواب حتى تمنع اشتعالها"

وتدفقت المياه في غزارة لتتشبع بها الأبواب الخشبية تاركةً بعض الماء ليتسرب إلى الأخشاب المشتعلة والمجوس يقذفون المزيد منها في إصرار، وشعر راجنار الواقف إلى جوار روفوس بالغضب:

"كيف تصمد هذه الأبواب اللعينة أمام كل هذا؟"

"لأن من خلفها يعرف أن الموت ينتظرهم في كل الحالات"

"إن الشمس توسطت كبد السماء، وسيشعر المقاتلون بالإرهاق وحر الشمس"

"لـن يكـون حرهـا علـى مقاتلينـا وحـدهم راجنار"

"ولكـنهم يـستطيعون تحمـل شمـسهم يـا سيدي؛ لقد اعتادوا عليها على خلاف رجالنا"

"أنـا لا أعـني الرجـال، دع الـشمس تقـوم بعملها يا راجنار، وواصلوا أنتم الإشعال تحت الأبواب"

ووقـف روفـوس يراقـب الـشمس والرجـال والنار والأبواب في اهتمام:

"الآن راجنار"

"الآن ماذا؟"

"احـشدوا الرجـال بالـدروع وجـذوع الأشـجار للعـودة لـضرب الأبـواب مـن جديـد بكـل قوتنـا وبكـل رجالنـا؛ فـالأبواب سـتتداعى أمـام

الضربات هذه المرة"

ابتسم راجنار في جذل:

"أمرك يا سيدي"

وانطلق رجال الشمال على الأبواب كما أمرهم قائدهم، ورأى الرجال فوق الأسوار هذا الهجوم المباغت:

"إنهم سيهاجمون الأبواب من جديد يا أمير"

نظر القائد إلى الأبواب في أسى:

"يا أرحم الراحمين، إن الأبواب لن تتحمل هذه المرة "

واجتاح الخوف كل كيانه.

* * *

الأبواب تتداعى

ارتفع بكاء الأطفال من إحدى خيام أهالى إشبيلية الفارين فشعر الأب بالأسى وقال لزوجته:

"الا تستطيعين تهدئة الصغار؟"

"إنهم جائعون ولا أجد ما أطعمهم إياه"

"لا حول ولا قوة إلا بالله؛ سأخرج لأبحث لهم عن شيء يأكلونه"

خرج الرجل وهو لا يعرف ماذا يفعل فكل المحيطين به يمرون بنفس الضائقة، لقد خرجوا من ديارهم فارين بأنفسهم ولم تتح لهم الفرصة ليحملوا أي شيء حتى هذه الخرق البالية التي يستترون بها من الشمس أحضرها بعض الفتيان المغامرين عندما نزلوا المدينة ليلاً.

لم ينتبه إلى أنه يدور بين الخيام في دائرة مغلقة دون أن يكلم أحداً أو أن يفعل شيئاً، وماذا يفعل إن كان صراخ الأطفال يسمع من كل مكان؟. وشتت هذه الأفكار صوت أحد الفتيان القادمين من تجاه المدينة وخرج الجميع لاستقباله

"إن القلعة تسقط، إن القلعة تسقط"

رد أحد الرجال يبدو عليه سمت العلماء:

"اهدأ وأخبرنا ما عندك"

"إن أبواب القلعة تتداعى، لقد رأيتهم من بعيد وهم يضربونها بجذوع النخل ويشعلون النار تحتها"

"ليعين الله من بداخلها"

"إنهم يقاتلون في استماتة ولكن لو فتحت هذه الأبواب فلن يبقى منهم باقية"

"وقتها سيأتي دورنا"

رد أحد الواقفين:

"إذًا يجب أن نرحل إلى قرطبة لنلتمس الحماية"

"ولماذا لا نقف لنواجههم؟"

"لأننا غير مستعدين ولا نحمل سلاحًا، لأننا حتى لا نستطيع إطعام صغارنا الجائعين"

"أين المسلمون؟ لماذا هذا التكاسل والتراخي

في نجدة إخوانهم في الدين؟"

"لعل الأخبار لم تصلهم"

"أية أخبار؟ لقد بدأت شمس اليوم الثاني في الزوال دون أن يغيثنا أحد، هل من الممكن أن يتأخر الخبر في الوصول كل هذا الوقت"

"بالطبع لابد أن بعض الفارين وصلوا إلى مدن عديدة"

"المسلمون، من تقصد بالمسلمين؟ أراك تقصد هؤلاء الغارقين في الملذات"

ابتسم الرجل صاحب سمت العلماء في وقار:

"سبحان الله لقد بلغتنا أخبار حصار قادس وشذونة ولم نحرك ساكنًا"

"لقد أراد الناس الخروج لنصرتهم ولكن لم تتح لهم الفرصة"

"وكذلك المسلمون في كل أنحاء الأندلس"

"هل تسمعون؟ ما هذا الصوت؟"

"إنها الخيل"

انتفض الرجال في فزع:

"هل وصل المجوس؟"

"كلا إن الصوت قادم من جهة...!"

وصاح الجميع في صوت واحد:

"قرطبة"

"إنها خيل قرطبة"

"الله أكبر، الله أكبر"

اقتربت خيل قرطبة من الرجال الذين ارتدت إليهم أرواحهم من جديد، وخرج الجميع لملاقاة خيل قرطبة، ونزل إليهم الحاجب عيسى بن شهيد؛ فالتفوا حوله في فرح غامر وقد ضجوا

بالتكبير والتهليل، ودار ابن شهيد بين الوجوه ثم توجه بكلامه إلى الرجل الذي بدا عليه سمت العلماء:

" السلام عليكم، أنا الحاجب عيسى بن شهيد وأريد من أتحدث معه"

"وعليكم السلام، تستطيع الحديث معي"

"هل لي في معرفة محدثي؟ فالشرف يبدو عليه"

"أنا إمام مسجد إشبيلية الجامع"

"أريد أن أتبين خبر المجوس قبل أن ألقاهم"

"إنهم يحاصرون الكثير من أهل المدينة بالقلعة، ولقد جاء هذا الفتى من هناك منذ قليل ويقول إن أبواب القلعة على وشك التداعي أمام هجمات المجوس"

وجه ابن شهيد حديثه إلى أحد رجاله:

"لتبقَ أنت ورجالك مع هؤلاء الناجين لتأمينهم ولتوفير الحماية لهم"

ثم عاد بالحديث إلى الفتى القادم من المدينة:

"هل تستطيع أن تصحبنا يا فتى لتخبرنا بخير الطرق حتى نستطيع الوصول لإنقاذ أهل إشبيلية المحاصرين"

وامتطى فرسه، وأردف الفتى خلف أحد فرسانه، وانطلقت خيل قرطبة نحو إشبيلية.

* * *

بدأت أبواب القلعة تتهاوى تحت ضربات المجوس العنيفة، وقد أوهنتها النيران والضربات المستمرة، وصاح قائد الجند في

رجاله:

"ابتعدوا عن الأبواب، أيها الرماة اصطفوا أمام الأبواب"

أسرع الرجال لتنفيذ أمر القائد الذي واصل:

"فليختبئ النساء والأطفال وليوصدوا خلفهم الأبواب"

تكتل بعض الرجال أمام أبواب قاعات القلعة لحمايتها، وأخذ قائد الجند يخاطب الجميع بصوت مرتفع:

"أيها الجنود، أيها الحرس، يا من يحمل السلاح من أهل المدينة، لقد انهارت الأبواب ولم يعد أمامنا سوى لقاء هذا العدو الهمجي، وصار الموت هو البديل الوحيد أمامنا، إذًا لنمت شهداء مقبلين غير مدبرين في سبيل الله؛

من أجل أهلنا وعرضنا، وليكن موعدنا جنة الخلد"

لم يكد القائد يتم كلماته حتى انهار المزلاج واندفعت جحافل المجوس إلى القلعة:

"أيها الرماة الآن"

وانطلقت النبال في كثافة على المجوس وتدفقت منهم أعداد ضخمة إلى القلعة:

"التحموا معهم"

والتحم الجند والحرس ومن يحمل السلاح من أهل المدينة لصد هذا الهجوم:

"لا تتركوهم يمرون إلا على أجسادكم"

كان القتال عنيفًا بين أهل الشمال المتدفقين في كثافة والمقاتلين الصامدين أمام الأبواب، وحاول بقية أهل المدينة محاصرة من

ينجح في المرور إلى الداخل على الرغم من كون ضرباته تطيح بالكثير منهم، وصار المقاتلون يتعثرون بأجساد القتلى الكثيرة من الجانبين، وطغى صليل السيوف على صوت صراخ الأطفال وبكاء النساء، ودب الوهن في قلوب الرجال وكشفت لهم النهاية عن وجهها.

وفجأة لاحظ الجميع تراجع المجوس، وما هي إلا لحظات حتى عم الصمت المكان، والناجون يراقبون ما يحدث في اندهاش وقد ألجمتهم المفاجأة بعد أن ظنوا أنهم هالكون لا محالة، حتى النورمان أنفسهم لم يدركوا لماذا أعطى قائدهم الأمر بالانسحاب. واجتمعوا إليه والغضب يتقافز من أعينهم، وعلت صيحاتهم ولكن هناك صوتًا ما طغى على أصواتهم، وبحثوا بنظرهم عن

مصدر الصوت ليدركوا السبب؛ لقد رأوا تلك الخيل التي رأوها من قبل وهم يحاصرون هذه المدينة ذات الأسوار العالية:

"يا للهول لو بقينا لحاصرونا"

نظر راجنار إليه في غضب ثم سأل روفوس:

"هل نهاجمهم يا سيدي"

رد روفوس في هدوء:

"إن الرجال منهكون من القتال الطويل"

"ولكن هذا سيدفعهم للكر علينا"

"لن يفعلوا فسينشغلون بمن داخل القلعة"

"هذا سيسهل لنا مباغتتهم"

"إنهم يتميزون بخيلهم وهم بكامل قوتهم، ونحن نحتاج الوقت لنستعد لهم، أنا لا أريد أن أكرر نفس الخطأ الذي حدث من قبل أمام

أسوار المدينة التي كنا نحاصرها"

"أي خطأ؟"

"عندما استمررنا في القتال عند وصولهم، مما قادنا للهزيمة بعد أن كنا قد شارفنا على النصر"

وتابع ببصره الخيل وهي تدخل القلعة بين صيحات من بداخلها ثم أشاح ببصره عن الفرسان الذين انتشروا أمام مدخل القلعة لتحتل مكان الأبواب:

"إن موعدنا غدًا أيها الفرسان، إن موعدنا غدًا لأقتص منكم"

* * *

نزل عيسى بن شهيد عن فرسه بين تكبير الناس وتهليلهم، وسار بينهم وهو يسأل في

حزم:

"أين أمير إشبيلية؟"

وتصايح المحيطون به منادين على قائد الجند:

"يا أمير، يا أمير"

وبرز قائد الجند والدماء تنساب من جرح غائر في كتفه، ونظر ابن شهيد في استنكار:

"من أنت يا رجل؟"

"أنا قائد جند إشبيلية يا أمير"

"وأين الأمير؟ لقد بلغني أنه محاصر في القلعة"

"لقد استشهد أمير المدينة بالأمس أمام أسوار القلعة وهو يقاتل المجوس"

"إذاً فأنت الأمير هنا الآن؟"

"ليس بعد وصولك يا أمير، ليس بعد وصولك"

"وهل تعرفني يا رجل؟"

"إن لم تخدعني فراستي فأنت الأمير عيسى ابن شهيد حاجب الأمير عبدالرحمن ووزيره وقائد جيش الأندلس"

ابتسم عيسى بن شهيد للرجل الذي تخاذلت قدماه؛ فأسرع ابن شهيد ليتلقفه في سرعة:

"ليسعف أحدكم جرحه في سرعة"

جثا الرجل على ركبتيه، وعيناه تدور بين أجساد القتلى والجرحى ومن بقي من المحاصرين بالقلعة ثم عادت لتلتقي بعيني عيسى بن شهيد وقال في وهن:

"لقد مر علينا وقت عصيب يا أمير"

هز عيسى رأسه بالإيجاب واجتمع بعض المسعفين حول الرجل الذي أغمض عينيه في هدوء.

* * *

كان القمر يتوسط كبد السماء عندما تقدم أحد النورمان في اتجاه معسكرهم القريب من القلعة قادمًا من قلب المدينة، وما إن اقترب حتى سأل أول من قابله:

"أين القائد؟"

"إنه يجلس مع زعماء العشائر في مؤخرة المعسكر"

واصل الرجل طريقه في همة حتى وصل إلى مجلس القائد فانحنى في احترام:

"سيدي القائد"

نظر إليه القائد في ريبة:

"ماذا هنالك؟"

"إنهم بالمدينة"

"وما الجديد؟ إنهم يتسللون إليها جيئة وذهابًا"

"ليس أهل المدينة وحدهم"

"هل تقصد أن معهم الفرسان؟"

"نعم يا سيدي"

"هل نشب بينكم وبينهم صراع؟"

"كلا يا سيدي"

"وماذا يفعلون؟"

"إنهم يجمعون أشلاء موتاهم"

"يبدو أنهم يستعدون لتنظيم صفوفهم"

"هل نقاتلهم يا سيدي؟"

"كلا"

"ولو قاتلونا؟"

"لا تستثيروهم ولن يقاتلوكم"

"لقد حاولوا بالأمس تصيد بعضنا"

"هذا قبل الآن، قبل أن يأتي هؤلاء الفرسان، عندما لم يكن لهم قيادة منظمة"

تدخل راجنار في الحوار الدائر:

"ولكن سيدي هكذا نمنحهم الوقت الكافي للاستعداد لنا"

"خاصة وأننا نستطيع مفاجأتهم يا سيدي فنحن نسيطر على المدينة"

"القتال لن يكون في صالحنا؛ لقد قلت من قبل راجنار إن الرجال منهكون، دعهم حتى ينهكوا أنفسهم ليلاً"

"أخشى أن نكون بهذا نمنحهم الفرصة

لخداعنا"

"ولماذا تفرض أن ما يجري هو خدعة ما؟ إننا أيضًا نحتاج إلى الوقت"

ونظر إلى الرجل الواقف:

"اذهب الآن إلى الرجال لتخبرهم بعدم التعرض لمن بالمدينة"

"أمر سيدي"

وانطلق الرجل في حين التفت القائد إلى زعماء العشائر

"دعونا الآن نناقش كيف سنواجه هذا التغيير الذي حدث في أرض المعركة"

"إنهم سيتفوقون علينا بخيولهم"

"تمامًا ، إذًا فنحن نحتاج إلى الخيول"

"هناك عدد لا بأس به من الخيول بين

الغنائم"

"وأريد أيضًا من يجيدون الرماية وتجهيز الأقواس اللازمة لهم مع إعادة ترتيب قواتنا"

"ولكن يا سيدي كل هذا يحتاج إلى وقت"

"ألم أخبرك أننا في حاجة للوقت؟"

"إذًا فكلانا يحتاج إلى الوقت"

"ولكن الفيصل فيمن سيستغل الوقت أفضل"

وشرد ببصره في اتجاه القلعة.

* * *

تحرك الجنود وأهل المدينة في همة شديدة وهم يجمعون أجساد الموتى من أنحاء المدينة، وقد وضعوا الكمامات على أنوفهم وقد ظهرت على وجوههم نظرة حائرة ما بين الشعور

بالنفور من الروائح المنكرة، والشعور بالألم والذعر لما تشاهده أعينهم، وكان أشدهم بؤسًا أهل المدينة، فهم يعرفون أصحاب هذه الأجساد جيدًا، لطالما أكلوا وشربوا معهم.
وتقدم ابن شهيد بين الرجال يعين هؤلاء، وينظم هؤلاء وتقدم منه أحد الرجال:

"سيدي ابن شهيد"

"هل انتهيتم من دفن شهداء القلعة؟"

"نعم يا سيدي وأخرجنا المصابين والنساء والأطفال والشيوخ إلى حيث أقمنا لهم معسكرًا"

"أين؟"

"كما أمرت يا سيدي برفقة بقية أهل إشبيلية الآخرين خارج المدينة"

"وماذا فعلتم بأجساد قتلى المجوس؟"

"قمنا بجمعها إلى جوار سور القلعة من الخارج في انتظار أوامرك"

"إذًا يستطيع من بالقلعة الآن الراحة حتى الصباح؟"

"وأنت ومن معك من الرجال يا سيدي"

"لقد أوشكنا على الانتهاء من هذه المنطقة، ولن يتبقى لنا سوى تلك المنطقة التي ينزل بها المجوس"

"إذًا فلن نستطيع الوصول إليها؟"

"لنتدبر أمرها صباحًا"

"أنا لا أعرف كيف يتحملون هذه الرائحة الشديدة!"

"لعلها تماثل رائحتهم فلا يستطيعون

تمييزها"

"لا أعرف كيف نجحتم يا سيدي في إنجاز مثل هذا العمل، إن أمر القلعة كان هيناً أمام هذه المساحة الهائلة في أرجاء المدينة"

"لولا مساعدة أهل إشبيلية لما نجحنا في هذا ، وخاصة مساعدة الفتيان المغامرين الذين جابوا إشبيلية بالأمس؛ فقد كانوا على دراية بكل ما نحتاج إلى معرفته من أمور"

"ولكن يا سيدي هناك مشكلة"

"ما هي؟"

"المؤن التي في صحبتنا لن تكفي كل هذا العدد"

"لا تقلق فستصل في الصباح قافلة من قرطبة بالدعم اللازم"

"ما هذا؟"

"ماذا تقول؟"

"أظن أنني لمحت شخصًا يجري هناك"

"أين؟"

"هناك"

ثم صمت قليلاً ثم استطرد:

"لعلها الظلال التي يبعثها الظلام"

"بلِ هو أحد المجوس"

"إذًا فهم يراقبوننا؟"

"بكل تأكيد"

"هل أجمع الجند؟"

"لا داعي لذلك فهم لن يفعلوا شيئًا الآن"

"لعلهم يعدون فخًا لنا"

"لا أظن ذلك فانسحابهم اليوم يدل على أنهم

أدركوا أننا من لاقيناهم يوم حصار أشبونة"

"إذًا فهم يحتاجون للاستعداد لنا"

"ونحن نحتاج لإعداد أرض المعركة"

"أشعر أن هناك أمرًا يدور في رأس الأمير ابن شهيد"

"دع هذا للصباح"

وما إن استدار ليواصل متابعة رجاله وأهل المدينة حتى تقدم منه إمام المسجد الجامع:

"لقد انتهينا يا أمير من جمع أهل المدينة في المعسكر الذي أقمناه لهم"

"هل حصرتم عدد المفقودين والشهداء؟"

"هناك الكثير مازالوا مفقودين لا نعلم عنهم شيئًا"

"لعل بعضهم سيكون قد فر إلى أحد المدن

القريبة والبعض.."

وصمت قليلاً:

"والبعض مازال في المناطق التي يسيطر عليها المجوس"

"تقصد الأسرى؟"

"والشهداء"

ثم ربت على ذراع الإمام:

"سامحوني في أن أرهقتكم الليلة بكل هذا العمل؛ فلقد كان ضروريًا إكرام من استطعنا من الشهداء بدفنهم"

هز الإمام رأسه متفهمًا في أسى:

"أصبت يا أمير، بارك الله فيك وجعلك حاجبًا لنا من تصاريف الدهر"

* * *

العين والحاجب

تجمـــع النورمـــان في انتظـــار أمـــر قائـــدهم بـالهجوم وتعلقـت بـه أعينهم فى حـين وقـف هـو متابعًا تجمعات الفرسان وحركـاتهم

"هل سنهاجمهم سيدي؟"

"انتظر راجنار حتى نستوعب ما يحدث؟"

"إن عددهم أقل من نصف عددنا"

"نصف عددنا ولكنهم بارعون"

"ونحن أشداء ولن يتفوقوا علينا أبدًا"

"إهدأ قليلاً؛ هناك غيرهم بكل تأكيد منتشرون إما في القلعة أو مع أهل المدينة"

"لن يتجاوز عددهم عدد زملائهم، لا زلنا متفوقين فنحن أيضًا لنا رجال منتشرون"

تقدم أحد زعماء العشائر من القائد:

"سيدي"

"ماذا هنالك؟"

"لقد قمنا بتوزيع الخيول التي غنمناها على الرجال"

"جيد، أخبرهم أن يستعدوا للانضمام لنا"

"أمرك يا سيدي"

هز القائد رأسه مشيرًا إلى الرجل

بالانصراف ثم التفت إلى راجنار:

"انظر راجنار إلى طريقة اصطفافهم وإلى تنظيمهم"

"لا أفهم يا سيدي"

"إنهم بارعون حقًا"

"أرى سيدي معجبًا بهم"

"بل يجب أن تعرف حجم عدوك الحقيقي حتى تستطيع أن تواجهه راجنار"

وجمد وجه قائد النورمان للحظات حتى رأى تحركات في مقدمة الصفوف:

"الآن راجنار"

صاح راجنار بصوت مرتفع فتصايح الجنود من خلفه استعدادًا للانطلاق، ونفخ في البوق فأشار إليهم القائد من جديد بالهدوء:

"انتظروا، انتظروا، ما هذا؟"

صمت الجميع مع إشارة القائد:

"ماذا حدث يا سيدي؟"

"هل ترى هؤلاء؟"

"إنهم يتقدمون"

"هذا ما ظننته في البداية ولكن"

"ولكن ماذا يا سيدي؟"

"ولكن هذا الفارس لا يتخذ وضعًا قتاليًّا، ويتقدم بهدوء، يتبعه مجموعة من الرجال يسحبون شيئًا يجذبونه بصعوبة"

نظر راجنار إلى الرجال الذين اجتهدوا في جذب أشياء مغطاة بدا عليها الثقل:

"هل تظنهم يريدون التسليم وأنهم قد أحضروا لنا هدايا"

"لا أظن ذلك"

تحفز النورمان للقاء الرجال القادمين فأشار إليهم قائدهم بالانتظار، فتقدم الرجل في المقدمة قائلاً كلمات مفرقة من لغتهم:

"قائد.. روفوس"

"يبدو أنه يريدك يا سيدي"

هز القائد رأسه مؤكدًا:

"تقدم إليه أنت راجنار"

تقدم إليه راجنار:

"ماذا تريد؟"

لم يبدُو على الرجل أنه فهم كلمات راجنار، وأشار كأنه يصنع قرنين أعلى رأسه:

"قائد.. روفوس"

ضرب راجنار صدره:

"أنا روفوس"

هز الرجل رأسه نافيًا وواصل تمثيل القرنين:

"قائد.. روفوس"

التفت راجنار إلى القائد:

"إنه يريدك أنت يا سيدي، يبدو عليه أنه يعرفك غير أنه لا يعرف لغتنا"

تقدم منه روفوس في تأنٍّ وهدوء:

"أنا القائد روفوس"

نظر الرجل إلى القرنين فوق خوذته ولنظراته الثاقبة ولسمات القيادة بشخصيته، وأشار إليه وقد علت وجهه ابتسامة:

"قائد.. روفوس"

هز روفوس وجهه الجامد بالإيجاب، فأشار الرجل إلى نفسه:

"أنا قائد.. عيسى بن شهيد"

تفحص روفوس عيسى بنظراته الثاقبة، وأدهشته وقفته الواثقة؛ فأشار إليه مستفهمًا فتراجع إلى ما كان يسحبه رجاله وأشار إليهم بالتراجع وكشف الغطاء فانعقدت ألسنة الرجال؛ لقد كانت أجساد قتلاهم، وتابع ابن شهيد نظراتهم ثم أشار إلى القتلى وإليهم:

"موتى"

رفع روفوس يده علامة الاستفهام فأشار عيسى إلى جزء المدينة الذي يسيطر عليه المجوس وإلى نفسه:

"أريد موتى"

أشار روفوس برأسه علامة الفهم فأكمل عيسى:

"يوم.. لا قتال"

هز روفوس رأسه بالإيجاب ثم أشار إلى جزء المدينة الذى تحت سيطرته وإلى الرجال الذين معه:

"أوافق ولكن أنتم فقط من سيدخل لجمع الموتى لا مزيد من الرجال"

ابتسم عيسى محييًا:

"شكرًا"

وانطلق مغادرًا تاركًا النورمان في حيرة:

"ما هذا يا سيدي؟"

"لا أعرف، كيف عرف هذا الرجل هذه الكلمات من لغتنا؟"

"هل هذا قائدهم حقًا؟"

"إنه يقول ذلك كما سمعت"

"أظن أنني لم أفهم ماذا يريد"

"بل فهمت ولكنك تخشى استنكار موافقتي"

"سيدي"

"كن صريحاً يا راجنار؛ إنك لا تستسيغ دخولهم إلى الأرض التي تحت سيطرتنا لجمع موتاهم ولا حتى يوم الهدنة الذي طلبوه"

"سيدي أنت تعلم أن هذا سيدعم موقفهم"

"وسيعطينا الفرصة لإعادة التخطيط لهذه الحرب"

"ولكن قدومهم إلى هنا دليل على ضعفهم، وكان من الممكن أيضاً أن نأسره"

"هل أصابتك عدوى هلفدين؟"

"سيدي"

"إن هذا الرجل لا يخشى الموت، ولو مسسناه بسوء لصب علينا رجاله جام غضبهم؛ لا أقول إننا سنهزم ولكن سنخسر الكثير، ثم لا تنسَ أننا بعيدًا عن أرضنا"

استدار روفوس تاركًا راجنار ثم بدا عليه أن تذكر شيئًا:

"صدقني راجنار حتى لو لم نكن في حاجة لمثل هذه الهدنة أنا لا أملك سوى أن أعطي هذا الرجل ما يطلب، فأنا أستطيع تمييز الرجال حين أراهم، ولولا كون الظرف لا يسمح لاتخذت هذا الرجل صديقًا بلا تردد"

* * *

جلست امرأة عجوز باكية أمام أحد الخيام وإلى جوارها غلام صغير، وما إن شعرت به

يقوم من جوارها حتى تبعته بعينيها الدامعتين وهو ينطلق ليمسك بيد أحد المارة؛ فهفا قلبها في لوعة؛ فما كان الغلام يفعل ذلك إلا مع أبيه، ولدها الذي فقدته، لولا أن أسكنته الثرى مساء أمس بنفسها لقالت إنه عاد، ورفعت عينها إلى وجه الرجل في حسرة وحاولت تأمله بحدقتين شارف الزمن على مسحهما، لقد كان عيسى بن شهيد الذي تلقف يد الغلام في هدوء دون أن ينقطع حديثه مع المحيطين به، ثم ابتسم للغلام الذي ضحك في براءة وهو يسير إلى جواره حتى شعر أن العجوز بدأت تغيب عن ناظريه فعاد إليها مسرعًا تاركًا ابن شهيد ليواصل مهمته الثقيلة.

"هل تأكدتم من أن كل الموجودين قد

وصله ما يكفي من الطعام؟"

"كلهم يا أمير، لكن كل ما أتت به القافلة قد نفد"

"لا تقلق لقد أرسلت إلى الأمير عبدالرحمن منذ قليل في طلب المزيد"

"ولكن هناك حادثًا غريبًا لم أستطع تفسيره"

"ما هو؟"

"لقد وجدنا هذه الرسالة مربوطة في قدم حمامة اصطادها فتى ليأكلها"

تناول ابن شهيد الرسالة من يده وهو يدخل خيمته، وأشار إلى بقية مرافقيه بالانصراف ثم قرأ الرسالة

"تراجع المجوس عند رؤيتهم لخيل قرطبة"

نظر ابن شهيد إلى الرجل في تدبر:

"هناك عين بيننا"

"للعدو؟"

"لا اظن؛ فلن ينعتوا أنفسهم بالمجوس"

"لهذا لم أستطع تفسيره، من ذا في الأندلس كلها يهتم بالتجسس علينا؟ إن خبرنا ليس سرًا"

"أنا أعرف من ذا الذي يهتم بأن تصله الأخبار مبكرًا، خاصة أخباري"

وتنهد في عمق:

"أخبار الحاجب عيسى بن شهيد"

"من تقصد يا سيدي؟"

"لا تشغل بالك، ولا تجعل هذا الأمر يشغلكم ولكن احفظه سرًا ودون أن تولي

الأمر اهتمامًا جِد لي هذا الشخص"

"السمع والطاعة"

"ولكن كما نبهتك: لا تجعل هذا الأمر يشغلك فهو اقل أهمية من أن يشغلنا"

"وماذا عن الفتى الذي وجد الرسالة؟"

"أخبره أنني الذي أرسلتها للأمير عبدالرحمن وأنني سأعيد إرسالها"

واستدار الرجل للخروج ثم بدا وكأنه تذكر شيئًا:

"كنت أريد أن أقول يا أمير إن اليوم شارف على الانصرام، والرجال الذين كلفتهم بدفن القتلى لم يعودوا"

"لا تخف على أهل مدينتك؛ فمعهم رجالي وأنا نفسي كنت معهم منذ قليل"

"هل سيذهبون إلى القلعة بعد أن ينتهوا؟"

"بل سيأتون إلى هنا.. أنا أنتظرهم الآن، ولكن أريد أن أسألك سؤالاً يا حسان"

"ما هو يا أمير؟"

"ماذا كنت تعمل قبل أن يأتي المجوس إلى المدينة؟"

"تاجر يا أمير"

"ظننت أنك كنت تعمل بالشرطة"

ابتسم حسان لهذه المداعبة وخرج من الخيمة، وجلس ابن شهيد يخط في بعض الأوراق معه تصورًا لأرض المعركة، ولم ينتبه إلا بدخول أحد رجاله وقد تغبرت ثيابه:

"السلام على الأمير"

"وعليكم السلام، هل انتهيتم من دفن

القتلى؟"

"نعم يا أمير"

"لقد حان الوقت للتخطيط لمعركة الغد"

"هل يريد الأمير أن يأمرنا بشيء؟"

ابتسم الأمير

"أنا أعلم أنكم منهكون لذا أمرتكم بالحضور إلى هنا لترتاحوا بعد عناء اليوم"

"ألن تخلد إلى الراحة قليلاً يا أمير؟"

"هل تظن أنني أملك مثل هذا الاختيار؟ دعنا من هذا وأخبرني هل لفت انتباهك شيء؟"

"كلا غير أننا سمعنا صهيل خيل لم نتمكن من رؤيتها؛ فقد كانوا يتعاملون معنا بحذر"

"هل هناك الكثير منهم في المدينة؟"

"هناك الكثير ولكنني أظن أن الأكبر منهم هناك في معسكرهم قرب القلعة"

"لماذا تقول هذا؟"

"لأنني كنت أشعر بهم من حولنا ولكنني لا أراهم، هذا بخلاف أنني استطعت رؤية نيرانهم من هذا الجزء من المدينة فأدركت أنهم ما اختاروا هذا المكان إلا ليصيروا قريبين من بعضهم"

"على ضوء ما رأيت، هل تظن أننا نستطيع إعادة بعض أهالى المدينة إلى منازلهم؟"

"كلا يا أمير سيكونون في خطر شديد"

"هل رأيتم مراكبهم؟"

"لم يسمحوا لنا بالاقتراب من النهر"

"ولا الأسرى أو الغنائم؟"

"لا لم نر شيئًا"

جمع ابن شهيد أوراقه وهو يخاطب الرجل:

"تستطيع أن تذهب يا عبدالعزيز، ولكن أعلم انك المسئول عن حماية هذا المعسكر أثناء القتال غدًا"

"إلى أين أنت ذاهب يا أمير؟"

"إلى القلعة؛ فهناك الكثير يجب أن يعد قبل القتال"

* * *

كان ابن شهيد يمتطي صهوة جواده، ويتصدر خيل قرطبة عندما اقترب منه أحد رجاله:

"هل الرجال مستعدون؟"

"نعم يا أمير"

"لنراجع الأمر من جديد سويًا"

"لقد قام الجنود بالانقسام إلى أربع مجموعات: مجموعة داخل القلعة ومجموعة تتكتل على شكل مربع أمام الباب من الخارج، ومجموعتين في الميمنة والميسرة، ظهورهم للأسوار يشكلون جناحي طائر مبسوطين ينقبضان وينبسطان حسب الأوامر في المعركة مع القدرة على الانسياب إلى المجموعة الثانية لدعمها"

"لاحظ أنهم سيلجئون إلى أسلوب حرب جديد فسيستخدمون الخيول"

"بإذن الله سيجدوننا لهم بالمرصاد يا أمير"

"ها هي الخيول بدأت تتوافد عليهم من معسكرهم داخل المدينة"

"هل رآها الذين دفنوا القتلى بالأمس؟"

"بل سمعوا صوتها"

"إنهم يخترقون الجموع ويتقدمون يا أمير، هل نتقدم؟"

"انتظر حتى أعطيكم الإشارة وليتقدم نصف المجموعة الثانية فقط"

تجمد الجميع في أماكنهم منتظرين إشارة البدء، وعيونهم ترمق خيل المجوس وهي تتقدم منهم في سرعة، ومن خلفها جحافل مقاتلي المجوس وهم يصرخون في غضب:

"الآن"

وانطلقت خيل قرطبة التي أذن لها ابن شهيد بالتقدم لتلتقي بخيل المجوس:

"الله أكبر، الله أكبر"

التحمت الفرقتان، وابن شهيد يراقب القتال العنيف وعينه تتابع تدفق مشاة النورمان وهم يتوافدون لينضموا للقتال أو يلتفوا حوله.:

"الآن ليتقدم بقية المجموعة الثانية، ولتطبق على المجوس المجموعة الثالثة والرابعة"

وأشار بكلتا يديه دلالة كطائر يقبض جناحية، وتقدم بفرسه إلى قلب المعركة ومن خلفه رجاله ليطبقوا الخناق على المجوس، كانت المعركة عنيفة بين الجانبين، وعيون المجموعة الموجودة داخل القلعة كانت تتابع القتال من فوق الأسوار، واحتشد عدد منهم أمام باب القلعة لمنع أي متسلل من الدخول، إن أوامر ابن شهيد تقتضي عدم التدخل في المعركة تحت أي ظرف من الظروف إلا أن

يحاول المجوس دخول القلعة، شعر النورمان أن جيش ابن شهيد قد أطبق عليهم فازداد غضبهم وارتفعت صيحاتهم واشتدت ضرباتهم، وتعامدت الشمس على الرءوس وروفوس يتابع القتال من بعيد في جذل

"إن القتال مع هذا الرجل في غاية المتعة"

نظر إليه راجنار في عجب:

"ماذا قال اسمه راجنار؟ ابن شهيد أليس كذلك؟"

"بلى يا سيدي"

"ستتقدم مع من بقي من الرجال راجنار، لا تشتركوا في القتال الدائر، التفوا من حوله واقتحموا القلعة"

وصمت قليلاً وهو يتابع القتال:

"الآن راجنار"

انطلق راجنار بالرجال في اتجاه القلعة وصيحاتهم تجتاح المكان، وانتبه فرسان قرطبة إليهم، وصاح ابن شهيد:

"الميمنة والميسرة تتبسط"

بدأ الرجال يوسعون الدائرة لينفصلا من جديد، ومع اقتراب المجوس القادمين كان الطريق إلى مدخل القلعة قد أغلق، وكشفت المعركة عن ساقها وصمد الفريقان، وأشار ابن شهيد إلى الميمنة والميسرة لتطبق من جديد على المجوس، وبدأت الشمس في المغيب، ومع حلول الظلام تراجع الفريقان، ووقف ابن شهيد بين رجاله والدماء قد صبغت ثيابه وتخضبت يداه منها:

"أحسنتم يا رجال"

"هناك شهداء كثيرون يا أمير"

"ولديهم قتلى كثيرون"

ونظر خلفه إلى المجوس الذين اجتمعوا مع قائدهم:

"موعدنا غدًا إن شاء الله"

* * *

ابن شهيد

وقف نصر الفتى في ردهة دار عباس بن فرناس، وقد كانت عيناه تدور بين أعاجيب ابن فرناس التي وزعت في كل مكان، واقترب من إحداها ليعبث بها، وفي أثناء ذلك قطع انشغاله صوت ابن فرناس الصارم:

"مرحبًا يا نصر لعل قدومك في خير"

"أنا أمري كله خير يا صديقي"

ابتسم ابن فرناس في سخرية:

"حقًا؟"

"هل تعلم عني غير ذلك؟"

رد ابن فرناس في جدية:

"ماذا تريد يا نصر؟"

"لقد جئت لزيارتك"

وأمسك أحد الآلات المنتشرة حوله ورفعه أمام عينيه ليراقبه واستطرد:

"أليس من الطبيعي أن يتزاور الأصدقاء؟ بل ويتهادوا أيضًا؟"

وابتسم في خبث:

"أم أن ابن شهيد فقط هو من يحظى بشرف صداقتك؟"

"سأكرر سؤالي ماذا تريد يا نصر؟"

"ترى هل قابلت ابن شهيد بنفس الجفوة عندما حضر إليك قبل سفره؟"

"هل تراقبنا يا نصر؟"

"ما هذه الآلة؟"

أبعد ابن فرناس يد نصر الممسكة بالآلة:

"لتسمعها مني يا نصر، لو كنت تحمل وشاية فاعلم أنني لست هذا الرجل الذي يأبه بالوشايات"

"دائمًا ما تسيء فهمي يا ابن فرناس، هل تعتبر زيارة صديق نوعًا من التهديد"

"إذًا لماذا لا تفتأ أن تذكر الحاجب ابن شهيد؟"

"فقط أريد أن تنزلني منزلته عندك"

"وهل هناك في قرطبة من هو في منزلته؟

وهل هناك في رجال بني أمية من هو مثله؟"

هز نصر رأسه في أسى:

"إنك تجحد قدر الكثيرين"

"بل هو من فاق الكثيرين قدرًا"

"وهذا الذي فاق الكثيرين قدرًا يخفي جاسوسًا للمجوس بل ويتعاون معهم؟"

"ماذا تقصد؟"

"ذلك الجاسوس الذي أخفاه عندك، هديته إليك"

"ابن شهيد لم يخف عندي جواسيس ولم يجلب لي هدايا"

"والمجوسي الذي أحضره لك؟"

"تقصد أسيره الذي جلبه من أشبونة"

"ها أنت قد أقررت بذلك"

"أقررت بماذا يا هذا؟"

"انتبه لكلماتك يا ابن فرناس؛ فأنت تكلم نصرًا، هل تعلم من نصر؟"

"الأندلس كلها تعلم من نصر"

"جيد أنك تفهم هذه، وليتك تفهم الأخرى أيضًا"

ثم نظر إلى ابن فرناس في غضب:

"ليتك تسأل نفسك لماذا يخفي المجوسي عندك؟ أليس من الأجدر بالأسرى جدران السجون؟"

"إذًا فأنت تتهم ابن شهيد؟"

"لو علمت ما أعلم فسيكون لك نفس موقفي"

"وما الذي تعلم؟"

"صباح الأمس حمل ابن شهيد قتلى المجوس إليهم بنفسه وتحدث إلى قائدهم"

"ليس لهذا أهمية"

"بل له أهميه عندما يحدثه بلغته"

ابتسم ابن فرناس في إعجاب:

"حقًا لكم هو عبقري"

شعر نصر بالضيق

"إنه لم يقاتلهم حتى مساء الأمس، بل كانوا ينسحبون من أمامه"

"إذًا فقد عرف الرجال قدر الرجل الذي جهلته أنت"

"لم تصلني أخبار اليوم بعد ولكني على ثقة من أن ما سيأتي سيكون أعظم"

"إذًا فقد دسست عليه العيون"

"والله ما أراك، إلا متعاونًا معه"

"لتتدبر كلماتي جيدًا يا نصر، لا تغرينك حظوتك عند الأمير عبدالرحمن بنفث سمومك في غياب ابن شهيد؛ فالأمير يعلم من هو الرجل ولن يشاركك رأيك، لقد اختبرتَ ذلك من قبل كما أظن ولم يُجْدِ، بدلاً من محاولة الدس له تنافس في الوصول إلى قدره؛ فبمكارم الأخلاق يدوم الرجال في أماكنهم وليس بدعم الآخرين فقط"

"إذًا فأنت تتحداني؟"

"أنا لا أتحدى أحدًا"

"إذًا لماذا تصر على إخفاء أمر الجاسوس؟"

"أنا لا أخفي شيئًا"

"إذًا اشرح لي الأمر"

"لست مطالبًا أن أشرح لأحد"

"إذًا لعلك ستكون مطالبًا بالشرح للأمير"

ونظر كلاهما إلى الآخر في تحدٍ، وامتلأت نظرات نصر بالتهديد ثم غادر المكان تاركًا ابن فزناس لهواجسه.

* * *

التف أهل إشبيلية حول ابن شهيد في سعادة يسكنها حزن عميق عندما وصل إلى معسكرهم مع بعض رجاله، ونزل عن صهوة فرسه وجلس إلى أهلها وأسرع إمام مسجد إشبيلية والتاجر حسان ورجله عبدالعزيز - الذي تركه لقيادة الخيل التي تركها لحماية أهل المدينة - للخروج له من أحد الخيام للقائه:

"مرحبًا بالحاجب؛ جعلك الله حجابًا لأهل إشبيلية"

"بل أعز الله الإسلام بأهل إشبيلية"

"إن ما حدث اليوم في الميدان سيذكره أهل إشبيلية ما بقوا"

"لقد انتهى اليوم بلا منتصر"

"من قال هذا؟ لقد رأى أهل المدينة العجب"

شارك حسان في الحديث:

"إننا منذ بداية هذه المحنة ونحن لا نحسن شيئًا سوى أن نقتل، لقد عرفنا معك كيف يكون القتال"

ابتسم ابن شهيد في سعادة:

"وإن شاء الله في الصباح سيجد المجوس مفاجأة تنتظرهم"

ابتسم حسان في جذل:

"ما هي؟"

"سيجدون باب القلعة وقد تم إصلاحه"

"حقًا؟"

"سينتهي النجارون من تركيبه الليلة"

"لطالما أتمنى أن أرى وجوههم"

وصمت قليلاً ثم استطرد:

"ونحن أيضًا لدينا ما نخبرك به"

"ماذا هنالك؟"

"لقد توافد علينا العديد من الرجال يبغون الجهاد من القرى المجاورة"

"أمر طيب"

"وقد نجحنا أيضًا في الإمساك بالرجل"

"أي رجل؟"

"رجل الحمام الزاجل"

"هل نجحتم بهذه السرعة؟"

"نعم يا أمير وهو قابع بهذه الخيمة"

"أريد أن أراه"

توجه عيسى بن شهيد إلى الخيمة وهو يشير للرجال بالبقاء، ودخل الخيمة ليجد رجلاً ملقى على الأرض موثق بشدة:

"الرحمة يا أمير"

"من أنت؟"

"أنا أحد الرجال الذين قدموا مع القافلة؟"

"لمن كنت تبعث بأخبارنا؟"

صمت الرجل

"إلى نصر أليس كذلك؟"

"بلى يا أمير"

"هل تعلم ماذا سأفعل بك؟"

صرخ الرجل باكيًا:

"الرحمة يا أمير؛ لقد أخبرني أن الأمير عبدالرحمن هو من طلب ذلك"

"هكذا"

"الرحمة يا أمير"

أمسك ابن شهيد بخانقه:

"سأتركك تعود إلى قرطبة ولكن أخبرني أولاً هل أخبرته بما حدث اليوم؟"

"كلا يا أمير"

"شيء جيد إذًا سترسل إليه آخر رسائلك من هنا ثم تنطلق عائدًا إلى قرطبة، ولا أريد أن يراك أحد هنا وإلا أمرتهم بقتلك"

"أمر الأمير، أمر الأمير"

"اكتب له: ابن شهيد يقرئك السلام يا نصر"

"أمر الأمير، أمر الأمير"

صاح ابن شهيد بصوت مرتفع:

"يا حسان"

"السمع والطاعة يا أمير"

"خذ هذا الرجل ليبعث بآخر رسائله، ثم اتركه يرحل ولو رآه أحدكم بعد ذلك ليقتله"

"هل ستتركه يرسل بالأخبار ثانية يا أمير؟"

"لآخر مرة فقط سيحمل سلامي لأحد أصحابي"

وخرج ابن شهيد من الخيمة ليقابل إمام المسجد بالخارج:

"يا أمير أريد أن أطلب منك أمرًا يا أمير"

"ماذا هنالك يا إمام؟"

"إن وصول المجاهدين من خارج إشبيلية وما حدث اليوم أذكى هممنا للمشاركة في القتال"

"إنهم مقاتلون أشداء يا إمام"

"وكلنا راغب في شرف الشهادة يا أمير"

"إذًا دعنا نتدبر كيف سيحدث هذا"

واجتمعوا ليتحدثوا حول النار المشتعلة.

* * *

حشد روفوس رجاله ووقف أمامهم وقد قسمهم إلى مجموعات يتصدرهم راكبو الخيول

"يا رجال الشمال الشجعان لقد امتلأت مراكبنا بالغنائم ونستطيع أن نعود إلى بلادنا

لننعم في دورنا بين نسائنا"

صاح الرجال مستنكرين كلماته:

"أنا لن أقلل من شجاعتكم بالأمس ولكن ما الذي كان ينقصنا لنربح هذه المعركة؟ الرجال؟ لقد كنا أكثر منهم عددًا، العتاد؟ لقد صرنا نمتطي الخيل مثلهم، الإمدادات؟ هم أيضًا مثلنا لم يصلهم المزيد من الرجال، الأسوار العالية؟ نحن نسيطر على الأرض كلها فيما عدا هذه القلعة عديمة الأبواب"

تصايح الرجال في حماس، فرد عليهم:

"أنا لن أنكر شجاعتهم ولكننا كنا أجدر على الفوز وعلى النصر في هذه المعركة"

عاد الرجال للصياح من جديد، فقال لهم:

"أنا أعرف أنكم أهل الشمال لن يرضيكم

بـضع قطـع ذهبيــة ، لــن يرضـيـكم سـوى أن تتخذوا بيوتًا هنا، لن يرضيكم إلا أن تكونوا حكام هذه الأرض، وهذه القلعة تقف عقبة في طريقنا، ولو أخذناها لأحكمنا السيطرة على هــذه المدينــة، ولــصارت نقطـة الانطـلاق لنــا لحكم هذه البلاد"

ارتفعت صيحات الجنود في هستيريا شديدة حتى أشار لهم :

"يـا مـن تعـدهم الآلهة لحكـم هـذه الـبلاد ، اليــوم يجـب أن نـرضــي هــذه الآلـهـة، يجــب أن نسيطـر عـلـى هـذه القلعـة وعلـى هـذه المدينـة بـل على هذه الأرض بأكملها"

دارت عيونـــه بـــين الرجـــال الـــصاخبين في صرامة:

"الآن ستهاجم مجموعة من اليسار محاولة الوصول للقلعة من اليسار، وفي نفس الوقت ستهاجم مجموعة من اليمين لنفس الهدف، والمجموعة التي ستبقى معي ستخترق الجموع من الوسط عندما تفترق قواتهم بين اليسار واليمين"

التفت إلى الجموع المحتشدة أمام القلعة:

"ليشهد هذا السهل مجد أهل الشمال، ليشهد مجد أودين وبالدير وثور، انطلقوا يا رجال"

انطلق الرجال متوجهين إلى حيث وجههم القائد في حين انتظر هو ومجموعته قليلاً ريثما يشتد القتال وينقسم جيش المدينة، وتقدم منه راجنار:

"أشكرك يا سيدي على أنك سمحت لي أن أقاتل إلى جوارك في هذه المعركة"

"لن يكون الأمر يسيرًا راجنار"

"أعلم يا سيدي، ولكن"

"ولكن ماذا؟"

"لطالما تمنيت أن يعود هلفدين ومن معه؛ إن هذا سيدعم موقفنا كثيرًا خاصة أن هلفدين مقاتل بارع"

"سيعود راجنار، هلفدين سيعود في الوقت المناسب، لطالما أخبرتك بهذا"

نظر راجنار في دهشة لثقة قائده:

"أنا أعلم أنه سيعود، ألم تتعلم بعد أن تصدق روفوس؟"

"بلى تعلمت يا سيدي"

"يا لشياطين الجحيم، ما هذا؟"

"ماذا تقصد يا سيدي؟"

"إنهم يغلقون أبواب المدينة، متى أصلحها هؤلاء الشياطين؟"

"لا أعلم يا سيدي"

"إن هذا سيغير كل خطتنا، سيغير كل شيء؛ يجب أن ننضم الآن إلى المعركة"

"أمر سيدي"

وارتفع من المؤخرة صوت يستغيث:

"يا سيدي، إن المدينة تتعرض لهجوم"

التفت روفوس لصاحب الصوت:

"ماذا تقول؟"

"لقد تركت الرجال في المدينة يقاتلون في شراسة"

"كيف حدث هذا؟"

"لقد فوجئنا بهم في الصباح وقد انتشروا في كل مكان"

"فعلها ابن شهيد"

وشعر بالغضب يجتاح كل كيانه.

* * *

كان شغل عباس بن فرناس الشاغل حين دخل إلى مسجد قرطبة الجامع البحث عن عميد الفقهاء وشيخ قرطبة يحيى بن يحيى، وتقدم من مجلسه في هدوء ليستمع إلى أحد الفقهاء الجالسين معه وهو يقول:

"ولكنك يا إمام بهذا تخالف الإمام مالك في هذه المسألة"

"لأن رأى الإمام الليث هو الأرجح عندنا،

ولقد أوضحت من قبل ذلك ولا مجال للإعادة"

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"

"وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا ابن فرناس"

"لا أريد أن أقطع حديثكم ولكني أردت أن أحدثك في أمر ضروري يا إمام"

"لقد كنا على وشك أن ننتهي، ماذا هنالك؟"

نظر ابن فرناس للفقهاء الجالسين من حول شيخ قرطبة فأدرك الشيخ انه يريد أن ينفرد به، فقام من مجلسه:

"أستمحيكم عذرًا يا فقهاء قرطبة فهناك أمر أريد أن أقضيه"

وقف أحدهم ليسر للشيخ بأمر في اذنه،

فابتسم الشيخ:

"السلام عليكم"

"وعليكم السلام يا إمام"

وما إن ابتعد الشيخ وابن فرناس قليلاً حتى سأله الشيخ:

"دعنا نجلس هنا"

وبعد أن جلسا بدأ ابن فرناس يقص عليه ما دار بينه وبين ابن شهيد وبين نصر الفتى:

"ولقد أتيت إليك يا إمام لمعرفتي بسديد رأيك"

"هل تخشى أن يشي بك عند الأمير عبدالرحمن؟"

"بل أخشى أن يثير الأمير على ابن شهيد وكما تعلم في ظل غيابه لن يجد من يدافع

عنه"

"لا تخف؛ فالأمير يعلم من هو ابن شهيد ويكنُّ له مكانة كبيرة"

"إن الغيرة تأكل قلب نصر؛ فهو لا يستطيع أن ينافس ابن شهيد فى المكانة"

"وليطمئن قلبك دعنا نذهب غدًا إلى عبدالرحمن لننبهه إلى ما قد يقال"

ابتسم الشيخ واستطرد:

"تخفي مجوسيًا في دارك يا رجل؟"

"لقد عرفت منه الكثير عن بلاده وعن قومه وعن أفكارهم ومعتقداتهم"

"لقد صدق الذي أسر إليَّ عندما قمت معك"

"هل قال شيئًا بشأني؟"

"لقد حذرني منك وقال لي: هذا الرجل له

أشعار تدفعنا للشك في عقيدته"

"أنت تعرف يا إمام أن رب العزة أخبرنا في كتابه العزيز أن الشعراء يقولون مالا يفعلون"

ابتسم شيخ قرطبة من جديد:

"تملك الرد دائمًا يا ابن فرناس"

* * *

على الرغم من صمت هلفدين إلا أن المحيطين به أدركوا بأن هناك عواصف أشد من أمواج البحر تضرب عقله من الداخل، لم يحاول أحدهم أن يتحدث معه، كانوا يعرفون أنه يشعر بالهزيمة على إثر ما حدث بينه وبين زعماء العشائر، يعرفون أنه مازال يرفض كون أن هناك من فرض عليه ما يخالف رغبته. حتى إن أحدهم لم يجرؤ على قطع

أفكاره لتنبيهه باقتراب قارب لودبروك من مركبهم، لكن ضربات المجداف على سطح الماء كانت قادرة على فعل ما أحجموا عنه، والتفت هلفدين إلى لودبروك وهو يصعد إلى مركبه:

"كيف حالك هلفدين؟"

واصل هلفدين نظراته الصامتة دون أن يبدو عليه أنه حتى سمع تحية لودبروك الذي استمر متجاهلاً صمت هلفدين:

"أريد أن أحدثك كصديق كما كنا نفعل فيما سبق يا عزيزي"

وصمت منتظرًا أن يرى أثر كلماته على هلفدين:

"أعرف أنك غاضب مني لأني وافقت زعماء

العشائر على قرارهم، ولكن صدق أو لا تصدق كلنا كان يعتصرنا الألم لأننا فعلنا ذلك، يعتصرنا الألم لأننا اتخذنا مثل هذا القرار، فقد اتبعناك منذ البداية بكامل إرادتنا"

ونظر إلى البحر الممتد حوله في كل اتجاه ثم استطرد:

"ولكن هلفدين نفس السبب الذي دفعنا لاتباعك هو نفسه الذي دفعنا لنقول لك كفى، لنتوقف هنا حتى لا نخسر الكثير"

"تخسرون؟ أية خسارة التي جئت لتتحدث عنها إن مراكبنا امتلأت بالأسلاب التي غنمناها في أسبوع واحد"

"ولكننا فشلنا في أن نسيطر على الأرض التي حاربنا عليها"

"انت تعلم أن روفوس فشل في كليهما من قبل؛ فلا هو ملأ المراكب بالغنائم ولا استطاع أن ينزل بارض"

صمت لودبروك ولم يجد ردًّا مناسبًا فاستطرد:

"أنا لا أعرف كيف يسيطر روفوس عليهم، لقد كنت في البداية أظن أنهم يخشون سطوته، أما الآن وقد ابتعدنا عنه لا أدري ما الذي يخشونه؛ أنا لا أرى مبررًا لما يحدث"

"لقد سمعت منهم من قبل"

"لم يعطني أحدهم مبررًا منطقيًّا استطيع أن أمسك به، أنت تعرف أنني ما انصعت لقرارهم إلا لاجتماعهم عليه، وأن الأمور قد خرجت من يدي"

"وهم أيضًا قد عرفوا لك ذلك والتزموا بطاعتك حتى إنهم قاتلوا نزولاً على رغبتك ثانيةً أهل هذه المدينة الساحلية التي تسمى قادس عند عودتنا أول أمس"

"لقد أعانوني ليعودوا محملين بالمزيد من الغنائم، وأحسب أن هذا قد حدث"

"كلنا يحفظ لك هذا هلفدين، كلنا عدنا بالغنائم، ولكن من المؤكد أننا لو استمررنا قليلاً لخسرنا كثيرًا، لم نكن نستطيع التوغل أكثر إلى الداخل، ولم نسيطر على أي مدينة، وأهل هذه البلاد يحتشدون للقتال بسرعة غريبة لم نألفها من قبل، لقد كان الوقت دائمًا في صالحهم كما كان يقول القائد روفوس، ونحن حتى هذه اللحظة

استطعنا تحقيق نصر سريع وقوي نفتخر به أمام القائد روفوس"

"نفتخر؟"

"نعم؛ لقد عدنا بالغنائم، والأهم أنك عدت"

"لأعطيه الفرصة لإذلالي"

"بل لتعطينا الفرصة جميعًا لنعود قوة واحدة أمام أهل هذه البلاد، لتعلم هلفدين أنك لم تستطع فهم القائد روفوس كما يجب حتى الآن"

"لا مجال لمناقشة كل هذا لوديروك: لقد انتهى الأمر ولم يبق إلا أن نجد الطريق الذى سلكه روفوس"

"أنت لا تعرف كم نشعر بالأسى لانزوائك، وكم نريد أن نستعيدك ثانية"

"دع كل شيء للوقت؛ فهو جدير بتغيير كل هذا"

"حتى حزنك؟"

"حتى حزني وحتى ما سمعت من آرائكم"

وصمت الاثنان وكل منهم يشعر بالعجز عن إخراج مكنون نفسه، ولجأت عيناهما إلى الأفق الممتد لتهرب من المواجهة:

"يبدو أننا اقتربنا يا صاح"

"ماذا تقصد؟"

"ها هي قوارب روفوس الاستكشافية"

"إن هذا يعني أننا قريبون هلفدين"

ابتسم هلفدين ابتسامة غامضة:

"إن هذا يعني الكثير"

* * *

تلاحقت الكلمات الغاضبة على لسان القائد روفوس وهو يحصر خسائر اليوم الخامس:

"لقد فعلها ابن شهيد"

"إن هذا الرجل داهية بحق يا سيدي؛ لقد أخطأنا عندما تركناه يعود ولم نقتله"

"أنا لم أقابل مثله في حياتي، لقد قابلت رجالاً يجيدون الدفاع عن أنفسهم ورجالاً يقاتلون حتى الموت ورجالاً يحسنون السيطرة على أتباعهم، ولكن أبدًا لم أقابل رجلاً يأتي إلى مدينة منهزمة محترقة مدمرة لم يبق منها سوى أطلال جدران وأشلاء مبعثرة، ومن بقي من أهلها ما بين مشرد وأسير، ثم يأتي هو ومعه عدد محدود من الرجال فيجمع هذه

الفلول وينتقل بهم من الهزيمة المطلقة إلى العودة للدفاع والصمود لنفاجأ به اليوم يتخطى كل هذا بهم إلى الهجوم"

"نحن من أعطاه هذه الفرصة من البداية سيدي عندما تركناهم ولم نهاجمهم عند قدومهم"

"هل كنت تريد منهم أن يسحقونا راجنار؟"

"من يستطيع فعل ذلك؟"

"هم راجنار؛ بخيلهم وبرجالهم المقبلين في عنفوانهم في حين أن رجالنا كانوا محاصرين داخل القلعة ، سيغلق عليهم مخرجها وقد عمهم الإنهاك؛ هل تظن أنهم كانوا سيقدرون على قتاله؟ أو أننا كنا سنصمد أمامهم في قتال بدون استعداد؟"

"على الرغم من براعة الرجل إلا أنني أرى أن سيدي يعطي هذا الرجل أكثر مما يستحق بل ويراه في حجم أكبر من حجمه"

"بل نحن حتى هذه اللحظة لا نستطيع معرفة حجمه الحقيقي، فمع مثل هذا الرجل يجب أن ننظر في جميع الاتجاهات قبل أن نتحرك"

"لم يكن من الممكن توقع إصلاحه لباب القلعة في ظل انشغاله بكل هذه الأمور، قتال في الصباح، وليلاً مع الناجين من أهل المدينة، وإذا تبقى شيء من الليل يقضيه في نشر قواته استعدادًا للصباح وكأنه لا ينام، وحتى هؤلاء الفارون، كيف استطاع في هذه اللحظات العابرة التي يقضيها معهم أن يشكل منهم فرقة تهاجمنا؟! وتحاول الوصول إلى معسكر

الأسرى لتحريرهم؟"

"هل رأيت؟ أنت من يصفه بصورة تحيله إلى أحد عمالقة لوكي"

"فقط أردت أن أقول إنه كان من الصعب توقع ذلك"

"لماذا؟ الأبواب والأسري وكل هذه الأمور كان يجب أن نتوقعها ونمعن النظر فيها"

"نحن لم نقصر سيدي"

نظر روفوس إلى النساء والصبيان الأسرى الجالسين في بؤس وشقاء محاولين الاستتار في أثوابهم الخرقة من لدغات البعوض ونظرات النورمان:

"يجب أن نفكر مثل هذا الرجل لنستطيع النيل منه"

"وكيف ذلك يا سيدي؟"

"دعنا نرتب أفكارنا: هذا الرجل يهتم في البداية بأمور هؤلاء الهوام المنهزمين من غير المقاتلين، فنجده يجمع الفارين في معسكر ويدفن الموتى، وحتى دفاعه عن القلعة وقتاله أمامها كانت الطريقة لجذب أنظارنا لمحاولة تحرير هؤلاء الأسرى"

"وهل هذا يعني شيئًا لنا؟"

"بالطبع يعني الكثير، يعني أننا لو أردنا أن نوجه له ضربة موجعة فيجب أن تكون لهؤلاء"

"الأسرى؟"

"الأسرى أو هؤلاء الذين جمعهم في معسكر"

"هل تريد مهاجمة معسكرهم؟"

"بالضبط، ولكن يجب أن يتم ذلك بهدوء دون أن نشعره بتحركنا حتى لا يستعد"

"وكيف سنفعل ذلك؟"

"كما فعل هو اليوم، ألم تتعلم منه؟"

"توجه قوات إلى المعسكر في نفس الوقت الذي ينشغل هو فيه بالقتال أمام القلعة"

"لقد اقتربت كثيرًا، اجمع لى رجال العشائر لنتفق على ما سنفعله بالغد"

"أمرك سيدى"

وابتسم روفوس فى ظفر وهو ينتظر قدوم زعماء العشائر، وقد بدأت الخطة تختمر في رأسه.

* * *

معسكر الناجين

وقف راجنار على رأس رجاله يراقب الرجال المصطفين أمام القلعة وهو يستعد للهجوم، وأخذ يراجع في رأسه ما دار بينه وبين القائد روفوس:

"أنت ورجالك يا راجنار ستهاجمون القلعة في الصباح؛ لتجذبوا انتباههم عنا عندما نضرب مخيماتهم"

"وإذا انتبهوا لقلة عددنا وأدركوا بالخدعة التي وقعوا فيها؟"

"إن هذا ما أريده، فهذا جدير بانتشار الفوضى بين صفوفهم وتتمكن أنت من الاستيلاء على القلعة"

يا لها من لحظة تلك التي سيستولي فيها على القلعة، إن اختيار روفوس له يدل الآن على أنه الرجل الثاني بعده، ومن يدري بعد سقوط القلعة كيف ستتطور الأمور، بعد قليل سيخترق هذه الصفوف ويصل لباب القلعة برجاله. أراد أن يصرخ في الرجال محمسًا إياهم كما كان يفعل روفوس لكنه لم يجد ما يقوله فأشار إلى الرجل الذي يحمل البوق، فارتفع صوته عاليًا يهز الربض:

"الآن"

وانطلقت الخيول يتبعها الرجال وهم يصيحون في وحشية، وتحركت خيل قرطبة في سرعة؛ لم تكن متجهة للقتال ولكن إلى داخل القلعة، وما إن وصل النورمان حتى أغلقت دونهم الأبواب واستشاط راجنار غضبًا:

"هل فررتم أيها الجبناء؟ اخرجوا لقتالنا"

ولمح رجاله الرماة الواقفين فوق الأسوار:

"إنهم سيرموننا بالنبال من أعلى"

والتفت راجنار حيث أشاروا، وانطلقت النبال وعم النورمان الفوضى وبدأ الرجال بالتراجع، وشعر راجنار بغصة في حلقه، ولم يجد أمامه سوى أن يعطي الرجال المتراجعين الأمر بالتراجع، وما إن ابتعدوا عن مرمى النبال

بمسافة كافية حتى سأله أحد رجاله :

"ماذا سنفعل الآن؟"

شعر راجنار بالحيرة والحرج؛ لم يفكر في مثل هذا من قبل، كان دومًا ما يعتمد على من يعطيه الأوامر، لم يرتجل أمرًا من قبل

"لقد كان هدف روفوس هو شغلهم حتى يتمكن من ضرب الخيام"

"إذًا هل ننتظر هنا؟"

"يجب أن نمنعهم من الخروج حتى يتم القائد الخطة"

"وقد يكون في الأمر خدعة والقائد في حاجة إلينا هناك"

صرخ راجنار في غضب:

"كفى، إنك تثير أعصابي"

إن أعصابه توشك على الانهيار وهو ينظر في حرقة إلى ما يجري، وشعر أن الشمس تنطلق في سرعة إلى كبد السماء

"اهدئي قليلاً أيتها الشمس بحق الآلهة كي أستطيع التفكير"

ونظر الى رجاله والى القلعة، كان يجب أن يرتجل، يجب أن يرتجل أمرًا جديدًا:

"ماذا كان القائد سيفعل لو كان في مثل هذا الموقف؟"

"لا أدري يا سيدي"

"اجمع الرجال؛ سنتجه إلى القائد لنقاتل إلى جواره"

نظر إليه الرجل في عدم فهم:

"لقد قلت: اجمع الرجال"

"أمر سيدي"

وارتفع صوته وهو يحدث نفسه:

"لم يكن عددهم هذا الصباح أمام المدينة كما كنا نشاهدهم من قبل، لم يكن أبدًا"

نظر إليه أحد القريبين منه:

"هل تحدثني يا سيدي؟"

"لابد أننا وقعنا في خدعة ما"

"أي خدعة يا سيدي"

لم يلتفت راجنار إلى الرجل وجذب عنان فرسه:

"لو صدق حدسي فالقائد في أمس الحاجة إلينا الآن"

وانطلق الجميع خلفه في سرعة وقد عمت الفوضى بين صفوفهم، لم ينتبهوا إلى أبواب

القلعة التي فتحت على مصراعيها، وانطلقت منها خيل قرطبة على إثرهم، والتفت النورمان بالمؤخرة إلى أصوات الخيول خلفهم، ليجدوا أنفسهم وقد باغتتهم الخيل، وازدادت الفوضى، وارتفعت صيحات النورمان العالية؛ لتتبه راجنار في المقدمة.

"يا للمصيبة لقد خدعونا"

ودارت رحى المعركة، وتناثرت الدماء.

* * *

كان نصر الفتى جالسًا على أريكته في بيت الوزارة مع أحد الوفود القادمة عندما اقترب منه أحد الحرس الصقالبة وأسر إليه بأمر جعله ينتفض في عجالة، ثم التفت إلى ضيفه:

"استمحيكم عذرًا فهناك أمر ضروري

يجب أن ابلغ الأمير به"

"وامر المجاهدين؟"

"سأنقل إلى الأمير خبركم الآن وسأبلغكم

بأوامره"

"ونحن في انتظارك"

انطلق نصر مع الحارس:

"هل أنت واثق مما تقول؟"

"لقد رأيتهم بعيني هاتين وهم يدخلون على

الأمير"

"يحيى بن يحيى وابن فرناس؟"

"نعم يا سيدي"

"عد إلى عملك الآن"

"أمرك يا سيدي"

سار نصر في سرعة بين طرقات القصر متجهًا إلى مجلس الأمير عبدالرحمن وهو يحدث نفسه بصوت يكاد يكون مسموعًا:

"إن هذين الرجلين لن يجتمعا في خير أبدًا، ماذا يريدان؟ يجب أن ألحق بهما قبل أن يثيرا الأمير ضدي وخاصة يحيى؛ فالأمير لا يرد لهذا الرجل كلمة"

وما إن اقترب من باب مجلس الأمير حتى أسرع الحارس بإخبار الأمير، ودخل نصر على الأمير والقلق يبدو على وجهه، والتقت عيناه بعين شيخ قرطبة القوية فارتجف من الداخل بشدة:

"ماذا هنالك يا نصر؟ لماذا تبدو قلقًا هكذا؟"

"لقد بدأ المجاهدون بالتوافد على قرطبة يا

أمير"

"أمر عظيم، ما الذي يثير قلقك في ذلك؟"

"الاستعداد لاستقبالهم يا أمير"

"لا زالت الأمور لا تستحق القلق، فهذا ما كنا ننتظره"

"ولقد وصل مساء أمس عبدالله بن كليب من سرقسطة"

"خبر عظيم، وهل هذا يدعو للقلق؟"

"فقط يا أمير تعجلت أن أجعلك على علم بما يحدث"

"دعنا من هذا الآن: فهناك أمر أهم"

"ما هو يا أمير؟"

"لقد وصلني بالأمس رسول من ابن شهيد"

هوى قلب نصر، وارتفع صوت ضربات قلبه

حتى كاد يصل إلى سمع الأمير، وازداد احمرار وجنتيه ليصل إلى عينيه، وتذكر سخرية ابن شهيد منه في الرسالة:

"فقط دعني أوضح لك الأمر يا أمير"

"أيًّا كان ما ستقوله فغير ذي قيمة؛ فقط أعرني انتباهك"

صمت نصر وكأنما التقم حجرًا فاستطرد الأمير عبدالرحمن:

"إن ابن شهيد في حاجة شديدة إلى المدد"

"المدد؟!!"

"نعم المدد، هل جهزت الجيش الذي أمرتك بتجهيزه للدفاع عن قرطبة؟"

"نعم يا أمير"

"إذًا ليستعدوا للخروج إلى حمص"

"السمع والطاعة يا أمير"

"الآن اذهب وابعث لي بابن كليب"

"أمر الأمير"

وانطلق نصر من فوره، وقد تبلبل فكره، ولم يعد قادرًا على تحديد اتجاه، والتفت شيخ قرطبة إلى الأمير:

"أرأيت يا أمير كيف كان القلق باديًا على وجهه؟"

ابتسم الأمير في هدوء:

"لقد كاد أن يسقط مغشيًا عليه"

"إنه بمجرد أن علم بقدومنا؛ حتى أسرع ليعلم ما الذي نبتغي قوله"

"أعلم يا شيخنا كل ما تقوله، ونقدر لك يا ابن فرناس إخلاصك، ولكن لست أنا ذلك

الغر الذي يخدعه نصر أو غيره"

"إن حديثه أثار حفيظتي يا أمير، وخشيت أن يدس لابن شهيد في غيابه"

"أنا أعلم من هو ابن شهيد، وما كنت لأرفعه لهذه المكانة يا بن فرناس؛ إلا لعلمي بإخلاصه وكفاءته"

"الآن اطمأن قلبي يا أمير"

"ولكن يجب أن ألفت انتباهكم إلى أن نصر على الرغم من أنه قد يأتي بأفعال مستهجنة إلا أنه شديد الإخلاص"

"نحن لا نطعن في إخلاصه يا أمير، ولكن الطموح الزائد يسبب الكثير من المشاكل"

"وأنا أعلم كيف أسيطر على هذه المشاكل"

"وإن سألني مرة أخرى عن المجوسي؟"

ابتسم الأمير:

"أجبه بما أجبته أول مرة"

"إنني أسجل يا أمير ملاحظاتي عليه، وما يخبرني به من أخبار، بل وأحاول جمع بعض مفردات لغته"

"بارك الله فيك يا ابن فرناس، ولكن ليتك تنتهي من عملك في أسرع وقت، فنحن في أمس الحاجة إلى ذلك"

* * *

دار روفوس بفرسه بين الخيام المشتعلة وهو يصرخ في غضب في رجاله:

"لقد خدعنا ابن شهيد، لقد خدعنا ابن شهيد"

"لقد رحل الجميع عن المعسكر وتركوا هذه الدواب لخداعنا"

"إن هذا الرجل شيطان لعله لوكي نفسه"

وصمت روفوس وصمت الجميع احترامًا لصمته، ثم نظر إلى رجاله وبدا كأنه يفكر بصوت مرتفع:

"لقد جعل أهل المدينة يهاجموننا بالأمس ونحن مشغولون بقتاله ليجذب انتباهنا إليهم، لنأتي إلى هنا"

"لا بد أنهم قريبون يا سيدي؛ لا أظن أنهم سيذهبون بعيدًا"

"لماذا أراد ذلك؟ هل يعد لنا فخًا؟"

"لا يوجد أي شيء يوحي بفخ يا سيدي"

وظهر الوجوم على وجه القائد:

"لقد أرادنا أن نقسم قواتنا؛ لقد فعل ما فعل ليوحي لنا بتلك الفكرة"

"وما الذي سيستفيده من ذلك؟ هل تريد أن تقول يا سيدي إنه يريد النيل منا عن طريق أن يشطرنا إلى نصفين؟"

"الأمر أبعد من ذلك؛ هل تذكرون عندما انسحبنا بالأمس لنلحق بالرجال قرب معسكر الأسرى؟"

"نعم"

"لقد كان يملك الوقت الكافي لنقل رجاله إلى مكان آخر"

"ولماذا؟"

"لنأتي نحن إلى هنا، ويحاصر راجنار قلعة مغلقة، ويذهب برجاله إلى معسكر الأسرى

ليحررهم"

"إذا فهم لن يخرجوا للقاء راجنار"

" بالضبط"

"سيدي هل لي ان اقترح أمرًا ما؟"

"ما هو؟"

"لو كان يريد هذا حقًا فلن نلحق بهم، فهم الآن إما تم لهم ما أرادوه، أو أن رجالنا الشجعان نجحوا في ردهم"

"ما الذي ترمي إليه؟"

"إن الذين كانوا يقيمون بهذا المعسكر لم يذهبوا بعيدًا، نستطيع أن نجدهم ونرد له الكيل"

"ولو كان نقل الجند إليه لحمايته؟"

"ما كان ليحتاج لإبعادهم عن هنا، إنه ما

أبعدهم إلا لكونه لم يستطع توفير الحماية لهم"

"فانت تريد ان نبحث عن أهل المدينة"

"إنه لن يستطيع نقلهم إلى مكان بعيد وستتكفل المفاجأة بالباقي"

"أحسنت وليم، ولكن بقي أمر واحد"

"ما هو يا سيدي؟"

"يجب أن نرسل لراجنار حتى يلحق بالرجال عند معسكر الأسرى"

لم يرد وليم على القائد؛ فنظر إليه القائد بغضب فرأى نظرة مذعورة على وجهه وهو يطالع شيئًا ما؛ فنظر حيث ينظر الرجل:

"يا للجحيم"

"إنه أحد رجال راجنار ملطخ بالدماء"

اقترب الرجل بفرسه حتى وصل إلى القائد ثم قال بصوت متهدج:

"سيدي"

"ماذا هنالك؟"

"لقد وقعنا في فخ، والقتال على أشده عند القلعة"

"كيف ذلك؟"

"لقد أغلقوا القلعة عليهم، وعندما انطلقنا لنلحق بكم خرجوا وهاجمونا من الخلف"

صاح روفوس به غاضبًا:

"كيف لراجنار أن يخالف أوامري ويغادر المكان؟"

"لقد ظن أن هناك فخًا يعد لكم هنا فأراد أن يوازركم"

"فخًا يعد لنا، وكيف لهذا الأحمق أن يعرف ذلك؟"

"لقد شعر بنقص عددهم في الصباح فظن أنهم ينتظرونكم هنا"

"وهل ترى أحدًا منهم هنا؟"

صمت الرجل ولم يجد جوابًا:

"وليم لا أدري كيف أقولها؟ ولكننا لن نستطيع تنفيذ اقتراحك"

"أفهم يا سيدي"

"فهذا الأحمق راجنار قد دفع بنا تحت أضراس ابن شهيد، ويجب أن نخاطر بأمر ما"

"نحن رهن أمرك يا سيدي"

"سنضطر لأن ننقسم إلى شطرين من جديد، خذ عشيرتك وانطلق لمعسكر

الأسرى، وسنذهب نحن لإغاثة راجنار"

* * *

اختبأ حسان خلف أحد الصخور وهو يراقب النورمان الغاضبين في المعسكر الخالي، وإلى جواره إمام المسجد:

"هل نهاجمهم؟"

"لم يأمر ابن شهيد بهذا يا حسان"

"إن المفاجأة ستلجمهم وسنستطيع إلحاق الهزيمة بهم"

"أوامر ابن شهيد واضحة: لا قتال إلا إذا اقتربوا من المعسكر الجديد"

"هل تعلم؟ لو كان هذا الرجل أمير مدينتنا لما مررنا بكل هذه المصائب"

"ما كان الأمير عبدالرحمن ليترك رجلاً

مثله، فما ولاه الحجابة إلا لفضله"

"لقد صار لنا بمثابة الحاجب للعين"

"انظر إنهم يرحلون"

ابتعد المجوس، وانطلق الرجلان إلى خيام أهل المدينة، واستقبلهم المجاهدون وفرسان قرطبة:

"ماذا حدث؟"

"لقد جاء المجوس كما قال الحاجب ابن شهيد"

"وماذا فعلوا؟"

"لقد عادوا من حيث أتوا"

وارتفعت الصيحات من بين الخيام؛ فالتفت المجاهدون لسبب صياحهم؛ فإذا بابن شهيد وقد تقدم النساء والصبيان الذين حررهم من

الأسر، وقد حمل صبيًّا صغيرًا وقد حفتهم خيل قرطبة:

"الله أكبر، الله أكبر"

وأسرعوا إليه لاستقباله:

"الله أكبر يا ابن شهيد"

"الله أكبر يا حسان"

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝﴾ [محمد: ٧]

"الآن قد صار من بقي من أهل حمص في أمان"

تقدم أحد الرجال من ابن شهيد وأعطاه ورقة صغيرة:

"الله أكبر، الآن يا إمام نستطيع أن نحمل

عليهم حملة واحدة لنستأصلهم، هذه رسالة من امير قرطبة يخبرني بأنه سيرسل المدد في اسرع وقت"

"وما الذي سنفعله حتى هذا الحين؟"

ابتسم ابن شهيد في انتصار:

"سنعد العدة لهذه اللحظة"

* * *

المدد

تقدم عبدالله بن كليب من الأمير عبدالرحمن:

"السلام على الأمير ورحمة الله وبركاته"

"وعليكم السلام يا ابن كليب"

"لقد بلغني أن الأمير يطلبني"

"لقد أردتك في أمر هام"

"متعلق بالمجوس"

"هل اطلعت على ما جرى؟"

"نعم يا أمير"

"وهل علمت أنني سأرسل المزيد من الرجال لابن شهيد؟"

"علمت يا أمير"

"ولكنك لم تعلم بعد أنني قد قررت أن أرسلك أنت قائدًا عليهم"

"ولكن يا أمير إن نصرًا يستعد للخروج"

"ومن قال إنني سأرسله؟"

"هو يظن ذلك"

"ليظن ما يشاء؛ المهم ما آمر به أنا"

وقام عبدالرحمن من كرسيه وتقدم إلى عبدالله:

"اسمعني يا عبدالله، أعلم أنك لم تأتِ من سرقسطة إلا مساء أمس ولكن الأمر خطير، ولا أستطيع أن أرسل ابن رستم فلا أستطيع أن أستغني عنه وعن ابن شهيد في نفس الوقت، إما نصر فأخشى إن أرسلته أن يتشاحن مع ابن شهيد والظرف لا يحتمل"

"نفسي فداء للأمير، ولكن نصرًا قد يغضب؛ فأنا رأيته وقد ارتدى حلة الحرب وهو في الطريق إلى هنا الآن، أما ابن شهيد فهو أرجح عقلاً من أن يتشاحن مع نصر في مثل هذا الظرف"

"أنا لا أخشى ابن شهيد ولكن أخشى نصرًا، وأنا أحتاج لمن يتعاون مع ابن شهيد لا أن يفت في عضده"

ودخل الحارس ليعلم الأمير بقدوم نصر فأذن له الأمير:

"ها قد وصل نصر"

"السلام على الأمير"

"وعليكم السلام يا نصر، لماذا ترتدي حلة الحرب؟"

"ألم تأمرني يا أمير بأن آمر الجند بالاستعداد للخروج؟"

"بلى، ولكن ما دخلك أنت؟"

"لقد ظننت أنك سترسلهم بقيادتي"

"وما الذي دفعك لهذا الظن؟"

اختنقت أنفاس نصر وقال في صعوبة:

"أنا في خدمة الأمير دومًا"

"سيخرج ابن كليب بالجنود يا نصر"

ونظر إلى ابن كليب:

"اذهب الآن ولتخرج بمجرد أن تستعد"

"السمع والطاعة"

انصرف ابن كليب تاركًا نصرًا واقفًا، وعلى وجهه نظرة هي مزيج من الذعر والحزن:

"أرى أن الأمير غاضب مني"

"من قال هذا؟"

"أنا أعرف الأمير عبدالرحمن عندما يكون غاضبًا"

ضحك الأمير عبدالرحمن:

"هل تظنني غاضبًا لأنني لم أمنحك قيادة الجيش؟"

صمت نصر ولم يجد جوابًا:

"أنا أريدك في أمر أهم"

"أنا خادم الأمير المطيع"

"أريد منك أن تهتم بأمر المجاهدين الذين بدأ توافدهم من أنحاء الأندلس، أن تهتم بكل الأمور التي تلزمهم من سلاح ومؤن وتنظيم، أريدك أن تعد منهم جيشًا للدفاع عن قرطبة"

بدأ الإشراق يعود مرة أخرى على وجه نصر:

"انطلق الآن لتنفذ ما أمرتك به"

* * *

خلع روفوس خوذته فقد شعر أنها ثقيلة على رأسه، ونظر إلى جسد راجنار المسجى أمامه وقد تلاحقت أنفاسه؛ لتنتزع ما تبقى له من الحياة عند خروجها، وجثا روفوس على ركبتيه ورفع رأس راجنار:

"القائد.. القلعة"

"لقد انتهى كل شيء راجنار"

حدق راجنار في وجه روفوس ثم لم يغلق عينيه بعدها، فأعاد رأسه إلى الأرض ووقف ينظر إلى القلعة مغلقة الأبواب في تحدٍّ، واقترب منه أحد الرجال:

"لقد انسلوا بسرعة إلى القلعة قبل وصولكم بقليل حاملين جرحاهم وقتلاهم"

"ولم تتبعوهم؟"

"لقد انشغلنا وقتها يا سيدي في .."

رد روفوس مقاطعًا:

"في محاولة النجاة، منذ متى يا أهل الشمال تهابون الموت؟"

"نحن لا نهابه يا سيدي"

وظهر في الأفق فرس مسرع

"ها هو وليم قد عاد من معسكر الأسرى"

تقدم وليم من روفوس وترجل من على فرسه وانحنى في إجلال:

"سيدي"

"ماذا هنالك وليم؟"

"لقد نجحوا في تحرير الأسرى"

"ماذا؟ نجحوا؟"

شعر روفوس بالدوار:

"والرجال القابعين في المدينة؟ والغنائم؟"

"لقد اهتموا فقط بتحرير الأسرى"

"هذه المرة الأولى التي يحدث هذا معي؛ لقد خضت الكثير من الحروب، وحققت الكثير من الانتصارات لم يحدث هذا معي من قبل، ما كل هذه الهزائم؟ لماذا تخلت عنا الآلهة؟"

"لقد خسرنا يا سيدي حتى الآن ما يزيد عن ثلث قوتنا"

"هل تظن وليم انه من الأفضل أن نرحل عائدين إلى بلادنا؟"

"سيدي لقد اقترب الشتاء"

"لتعلم وليم أن روفوس يفضل الموت على أن يعود مهزومًا"

"لم يقل أحد بهزيمتك يا سيدي، ولكن هذه البلاد لا يناسبها إلا من يخطف الخطفة ويسارع بالابتعاد"

"يخطف الخطفة"

"نعم يا سيدي؛ لقد رأيت قدر الغنائم التي حققناها في يومنا الأول هنا ، ثم بدأت الأمور تسوء؛ كل يوم هو أسوأ من سابقه، ولعل ما

سيأتي سيكون أسوأ"

"صدقت وليم نحن نحتاج إلى أن نخطف الخطفة ونسارع بالابتعاد"

ولمعت عيناه في جذل ووضع الخوذة على رأسه، وامتطى فرسه:

"وليم أنت الآن فارسي الأول، أريد منك أن تحصر لي الرجال وتجمعهم لي عند معسكرنا داخل المدينة عند شاطئ النهر"

"هل سنرحل يا سيدي؟"

"بل سنغير أسلوبنا القتالي، لن نسعى خلف المدن والقلاع بعد اليوم"

ونظر إليه وهو يشد لجام فرسه واستطرد:

"سيتخذ القتال من الآن منحنى جديدًا"

* * *

مع ارتفاع شمس اليوم السابع انطلقت فرقة من خيل قرطبة بقيادة ابن شهيد على ضفاف نهر الوادي الكبير، حتى اقتربت من المكان الذي يعسكر فيه النورمان؛ فتخلى عن فرسه وتقدم حتى صار معسكر النورمان في مجال رؤيته، واختبأ بين النباتات البرية على شاطئ النهر، وتبعه اثنان من رجاله وأخذ يراقب في صمت:

"هل سنهاجمهم يا أمير؟"

"كلا، أردت فقط أن أعرف لماذا لم يحتشدوا أمام القلعة؟"

"لعلهم يزمعون الرحيل"

"لا أظن ذلك؛ فما أرى لا يدل إلا على كونهم يعيدون تنظيم صفوفهم"

"ولكن هذه الحركة الغريبة من والى مراكبهم توحي بأنهم سيرحلون"

"إنهم يحشدون الغنائم لتكون بعيدة عن أيدينا لو نشب القتال"

"أنا لا أعتقد هذا يا أمير؛ فلو أرادوا الاستعداد للقتال لماذا جمعوا كل رجالهم"

"وأنا كنت هنا بالأمس ولم أستطع الاقتراب إلى هذا الحد يا أمير، فقد كان رجالهم منتشرين في كل مكان"

"لو صدق حدسي فهم لن يرحلوا بل سيغيرون على المدن والقرى التي بغرب النهر"

"لماذا تقول هذا يا أمير؟"

"لأننا أغلقنا عليهم طريق الشرق، والبقاء ليس بصالحهم؛ ففي كل يوم يمر تزداد

خسائرهم، وليس هناك طريق للإمداد لتعويض هذه الخسائر"

"ألا يخشون أن نتبعهم إلى ضفاف النهر الغربية؟"

"نكون وقتها قد حققنا لهم جل مبتغاهم"

"هل يريدون أن نتبعهم؟"

"لنترك المدينة ويعودون إليها، ووقتها لن يكون في المدينة أحد ليدافع عنها"

"إذاً نذهب خلفهم وتبقى منا فرقة للدفاع عن إشبيلية"

"لو لم يأت المدد من قرطبة سنضطر لفعل ذلك"

وتابع ابن شهيد تحركات النورمان وصيحات قائدهم ثم التفت إلى أحد مرافقيه:

"لتبق انت وتراقب ما يحدث فنحن سنعود إلى المعسكر لاستقبال المدد القادم"

وبعد أن تراجع هو ومرافقه الآخر بدا عليه كأنما تذكر شيئًا:

"أحمد كن حذرًا ولا تورط نفسك في أي قتال، فنحن نحتاج إلى ما ستحمله من أخبار"

"السمع والطاعة يا أمير"

واستدار ليراقب في صمت، وبدأت أصوات حوافر الخيل تبتعد. كان الوقت بطيئًا قاتلاً، وهؤلاء الرجال لا يكلُّون ولا يملُّون يتحركون في نشاط شديد، يسمع أصواتهم العالية ولا يفهمها، وبدأ يتساءل ماذا سيفعل لو اكتشفوا أمره، وأخذ يبحث بعينه عن فرسه الذي ظهر من خلفه، وكأنه يدرك حاجة صاحبه إلى

الهدوء؛ فوقف في صمت كأنما استحال إلى حجر، وسمع صوتًا ما؛ إنه يختلف عن الضجيج الذي ينصت إليه منذ الصباح؛ إن الصوت يقترب، وبدأ يشعر بالقلق، وبدأ يهمس بصوت غير مسموع:

"اهدأ يا أحمد، اهدأ لكي تفكر، لقد قال الأمير: لا تتورط في قتال"

وبدأ ينسحب بهدوء وهو يبحث عن مصدر الصوت حتى لا يقع في يده:

"ولكن"

لقد تذكر شيئًا؛ إن مصدر الصوت الماء، ونظر إلى الماء في سرعة، إنها مراكب قبيحة كمراكب المجوس تقترب

"ولكن مراكبهم هناك عند؟؟؟"

وفغر فاه في رعب، لقد بدأ يدرك الأمر

"هل هذا صحيح؟؟"

وانحنى ليختفي عن أنظار الرجال بالمراكب، لعلهم رأوه ولكنه لم يلفت انتباههم، وأمسك بلجام فرسه وقفز عليه في سرعة وانطلق ليبلغ ابن شهيد، إنه عين ما استبعده ابن شهيد، لم يتوقع أبدًا أن يحدث هذا، يجب أن يصل إليه في سرعة ليبلغه أن المجوس قد وصلهم المدد.

* * *

رمق عبدالله بن كليب السعادة الغامرة في عيون الجميع، وجلس إلى ابن شهيد الذي واصل الترحيب به في حرارة:

"كنت أتمنى أن ألقاك هناك في قرطبة يا

رجل"

"يعلم الله أنني قد سعيت إلى لقائك بمجرد وصولي إلى قرطبة، ولكن بلغني خبر خروجك على خيل قرطبة لتغيث حمص من المجوس"

"إنه بلاء لم يكن لأحد على بال"

"ولكنك لها يا ابن شهيد"

"لقد واجهت الأعداء في الشمال وشهدت ثوراتٍ وفتنًا، ولكن ما رأيت مثل هذا الخطر من قبل"

"ما الذي يدفعك لقول هذا يا صاح؟"

"لو رأيت وحشيتهم وهمجيتهم، لو رأيت أشلاء القتلى المتناثرة"

"إنها زهوة الانتصار كما تعلم"

"بل الأمر يتخطى ذلك؛ إنهم يبدون

كوحوش في الغابة تمكنوا من فريستهم"

"ولكنك صياد ماهر يا ابن شهيد، استطعت أن تقهرهم. إنني ألمح الإعجاب بك في عيون كل أهل المدينة"

"إنهم يستحقون أن يقاتل المرء من أجلهم، فقد صمدوا معي في وجه هذا العدو الغاشم حتى تصل بالمدد"

"ماذا تقصد بقولك: تصل بالمدد؟ لقد أرسلني الأمير عبدالرحمن لأعمل تحت إمرتك أيها القائد الشجاع"

"وهل يرسل الأمير عبدالرحمن قائده عبدالله بن كليب ليعمل تحت إمرة أحد؟"

"هذه هي الحقيقة، حتى إنه لم يرسل نصرًا حتى لا يزعجك"

"نصر؛ أنا لا أعرف متى سيكف هذا الرجل عن أفعاله الغريبة"

"لقد فُطر على ذلك، دعك منه وأخبرني كيف يدور القتال هنا"

"لقد كبدنا المجوس خسائر كبيرة واستطعنا تقليص سطوتهم إلى جزء صغير من المدينة يطل على النهر حتى إنهم بدءوا في إعادة ترتيب صفوفهم"

"إذاً فقد وصلنا في الوقت المناسب حتى نستطيع أن نرد هجومهم القادم ونستأصلهم"

"لكني لا أعتقد أنهم سيحاولون خوض حرب هنا في إشبيلية"

"ماذا تقصد؟"

"أقصد أنهم سيتجهون إلى الغرب"

"لماذا تقول هذا؟"

"تحركاتهم التي رصدتها اليوم بعد أن عجزوا عن المرور من خلال إشبيلية، والآن أنا أنتظر تأكيدًا من رجالي"

"لو حدث هذا ستكون كارثة؛ فأول منطقة حصينة ستقابلهم هي لبلة"

"ولبلة على بعد أربعين ميلاً، هل تعرف ماذا يعني أربعون ميلاً من القرى والمدن غير الحصينة؟"

"عشرات القتلى"

"إنك متفائل بل مئات، سيمتلئ فَحْصُ الشَّرْف بالأشلاء المبعثرة"

"إن هذا الحديث يثير الكآبة بالنفس"

"الأسوأ أن هجومنا عليهم سيدفعهم دفعًا إلى

هناك"

"إذًا لابد من توجه جيش إلى الشَّرْف"

"بالضبط حتى نستطيع الإطباق"

وقبض كفيه في شدة كأنه يعتصر شيئًا

ثم استطرد:

"ما يثير رعبي حقًا أنه أمام طريق لبلة المغلق

قد يلجئون إلى التوغل شمالاً لنجدهم بقرطبة"

"لا تخف على قرطبة، يكفي أن يطلق

عليهم الأمير عبدالرحمن رجاله المعروفين

بالخرص ليفنوهم عن بكرة أبيهم"

"أنا لست قلقًا من سقوط قرطبة بين أيديهم

ولكن"

وصمت قليلاً كأنما يبحث عن كلمات

مناسبة:

"هؤلاء القوم يشبهون الجراد، على الرغم من ضآلته وضعف شأنه إلا انه يترك الخراب خلفه أينما حل"

وانتبه كلاهما على صوت فرس يجري بين الخيام وصاحبه يصيح في ذعر:

"أين الأمير عيسى بن شهيد؟ أين الأمير عيسى بن شهيد؟"

"ماذا هنالك يا أحمد؟"

ووقف ابن شهيد ليستقبل القادم الذي قفز من على فرسه:

"المجوس يا أمير"

"أفصح"

"لقد وصلهم المدد"

"ماذا تقول؟"

"لقـد رأيـت المزيـد مـن المراكـب يتوافـد عليهم، المزيد من المراكب المملوءة بالرجال"

وقف عبدالله بن كليب وقد ظهرت المفاجأة على وجهه:

"أظن أن دوري قد حان"

"إننا نحتاج إليك بالشَّرْف يا عبدالله، يجب أن تلتف حول إشبيلية لتلقى المجوس هناك"

"وإشبيلية لقد تغيرت الأمور وازدادت قوتهم"

"دع لنـا إشـبيلية والـدفاع عنهـا فقـد ألفناهـا وألفتنا"

"ولكن هـذا سيكون عبئًا كبيرًا عليكم خاصة بعد الأيام الصعبة التي قضيتموها"

"العبء الحقيقي أن يتجاوزوا إلى الشَّرْف ولا نستطيع ردهم!"

"السمع والطاعة يا أمير"

واتجه عبدالله بن كليب إلى فرسه ليمسك بلجامه:

"يا عبدالله، في رعاية الله يا أخي"

* * *

تصايح النورمان في صخب وهم يستقبلون العشائر التي كانت قد خرجت مع هلفدين، وتقدم زعماء العشائر من روفوس الواقف في شموخ منتظرًا إياهم:

"مرحبًا هلفدين، ما أخبار غزواتك؟"

رفع هلفدين رأسه في تحدٍ:

"جيدة لقد غنمنا الكثير"

"أستطيع أن أرى هذا، والآن استعد للمعارك القادمة فنحن في حاجة إلى بسالتك"

شعر هلفدين بالعجب، فكلمات القائد توحي بالسخرية ولكن طريقته في إلقائها كانت في غاية الجدية:

"ماذا بك يا هلفدين ألم تسمع كلماتي؟"

"سمعتها يا سيدي ولكن لم أستوعبها"

"كعهدي بك هلفذين دائم الجدل، أو لعلك محق؛ فأنت لا تعرف ما يدور هنا"

"أستطيع أن أميز أنكم نجحتم في السيطرة على المدينة"

"يحتاج الأمر إلى مزيد من الشرح، دعني أرحب أولاً ببقية الرجال"

تقدم الرجال منه ليصافحوه:

"مرحبًا بكم يا رجال مرحبًا بعودتكم مرة ثانية إلى جيش دانماركة، لودبروك: لماذا تقف

في المؤخرة هكذا؟ تقدم يا رجل"

"هل ننزل الغنائم يا سيدي؟"

"بل دعوها الآن بالمراكب، تستطيعون أن تهنئوا بقسط من الراحة بعد هذه الرحلة الشاقة"

مال هلفدين على أذن لودبروك:

"ما الذي حدث لهذا الرجل؟ حتى إنه لم يعنفنا"

"لقد أخبرتك: أنت لم تعرفه جيدًا"

"أو لعله في حاجة ماسة إلينا"

نظر إليه لودبروك باستهجان:

"حاجة إلينا، ألا ترى أنه نجح في إخضاع المدينة؟"

والتفت إليهم روفوس مخاطبًا:

"هلفدين أريد أن أتحدث معك"

همس هلفدين للودبروك:

"أعتقد أن لحظة الحساب قد حانت"

سار هلفدين مع القائد بين أطلال المدينة:

"أنت ترى هلفدين أننا نجحنا في إخضاع المدينة"

"أرى سيدي"

"لقد أوشكت قلعة المدينة أن تقع هي الأخرى بين أيدينا حتى جاء ابن شهيد"

"أوشكت؟"

"نعم، لقد كان لدينا الكثير من الأسرى، ومدينة مهزومة، وغنائم لا تحصى، وقلعة تسقط؛ حتى ظهر الجنود الذين قابلناهم هناك عند الساحل بالشمال هؤلاء الرجال راكبو

الخيول"

"نعم نعم أذكرهم"

"لقد قلبوا ميزان المعركة، وبدأنا نفقد إشبيلية قطعة قطعة"

"إشبيلية؟"

"هذا هو الاسم الذي يطلقه أهل هذه المدينة عليها، لقد نجح القائد ابن شهيد في حشدهم من جديد بعد أن أفنينا أغلبهم"

"هل حاكم المدينة اسمه ابن شهيد؟"

"بل قائد الجنود، لقد جاء إلى هنا بعد وصوله برجاله لقد أبهرتني شجاعته، بل لقد نجح في الحديث بلغتنا"

"هل كان يريد الصلح؟"

"بل فقط أراد جمع أجساد القتلى، من يبالي

بذلك في مثل هذا الظرف؟"

"وانت في حاجة لحشد العشائر لهزيمته"

"أستطيع أن أهزمه وحدي هلفدين تأكد من ذلك"

"إذاً أين المشكلة هنا؟"

"المشكلة هي أنني قررت الا أضيع الوقت والجهد أمام الأسوار العالية"

"تريد أن تبحث عن مكان جديد"

"بل أريد أن أغيّر اتجاهنا ، ونُغِير على المناطق المحيطة"

"تريد أن تلتف حول هذا الرجل؟"

"بل أكره قتاله، أكره قتال شخص نجح في إبهاري، ففي مثل هذا الوقت تعجز عيناك عن رؤية نقاط ضعفه ، وتصبح ضرباته موجعة"

"لم أكن أحسب أن هناك من سينجح في إبهار القائد العظيم روفوس يومًا"

"أنت هلفدين نجحت في هذا من قبل"

"أنا؟"

"نعم، ولكنك كنت دومًا في عجلة من أمرك مما كان يفقدك بريقك"

نظر هلفدين إلى وجه روفوس في عجب، فابتسم له روفوس:

"لطالما تمنيت أن تتمهل قليلاً لتفكر؛ لكان الأمر اختلف كثيرًا"

"هلفدين في خدمتك دومًا يا سيدي"

ربت روفوس على كتف هلفدين:

"إذًا استعد أيها المغوار لمعركة الغد؛ فسنغادر قبل الشروق"

"أمر سيدي"

انصرف هلفدين والحبور بادٍ على وجهه، ودخل روفوس لخيمته وخلع خوذته، وما كاد أن يجلس ويمد يده إلى صاع أمامه حتى دخل عليه لودبروك:

"مرحبًا لودبروك، أحسنت صنعًا يا رجل"

"فقط أنا أسعى لنيل رضا القائد"

"لقد نلت رضاي منذ زمن بعيد، منذ أخبرتني أن هلفدين دعاني روفوس فقط"

"لقد شعرت وقتها يا سيدي أنه أراد أن ينشق عن سيدي"

"لقد كنت مصيبًا في شكوكك وقتها"

"لقد حرصت أن أطيع أوامر سيدي القائد روفوس حتى عندما أمرني أن أتبع هلفدين لو

انشق عن سيدي"

"ومن الواضح أيضًا أنك أديت دورك بنجاح"

"لا تتخيل يا سيدي كم كان من الصعب أن أقنع زعماء العشائر بالانقلاب على هلفدين؟!، وكان الشق الأصعب أن أظهر لهلفدين أنني بعيد عن كل هذا كي أستطيع إقناعه بالعودة"

"أنت رائع لودبروك، وينتظرك مستقبل باهر"

"حقًا يا سيدي؟"

قضم روفوس قضمة من الفاكهة التي بيده:

"من هم في مثل ذكائك دائمًا ما يصلون سريعًا"

"أشكرك يا سيدي"

"تستطيع أن تذهب لتحظى بقسط من الراحة"

"أنا في خدمة سيدي"

وما إن خرج لودبروك من الخيمة حتى قضم روفوس قضمة أخرى، وهمس بصوت غير مسموع في اشمئزاز:

"من هم في مثل نذالتك دائمًا ما يصلون سريعًا بتملق الآخرين وخداعهم"

* * *

السقوط

ما كاد أهل المدينة ينهون صلاة الفجر حتى جلس أحد رجال ابن شهيد إليه:

"إن المجوس يغادرون إلى البر الغربي"

"إن هذا أمر بالغ الخطورة؛ فابن كليب يحتاج إلى المزيد من الوقت للوصول إلى هناك"

وصمت ابن شهيد لبرهة ثم استطرد:

"إننا نحتاج إلى مزيد من الوقت، نحتاج أن نبطئ من حركتهم قليلاً"

"وكيف ذلك يا أمير؟"

نهض ابن شهيد في عجلة

"اجمع خيل قرطبة فسنخرج للقائهم لعلنا نكسب المزيد من الوقت"

اتجه ابن شهيد لخيمته ليستعد للخروج للقتال، ثم أسرع بامتطاء فرسه ليجد أن خيل قرطبة تنتظره، وخرج كل من بالمعسكر ليشهدوا ما يحدث:

"يا خيل قرطبة، يا أهل المروءة والشجاعة نحن في حاجة لوقف المجوس حتى تستطيع خيل ابن كليب أن تبلغهم من الشَّرْف، إن نجاحنا يعني إنقاذ مئات الأرواح من القتل، إنه لأمر

عظيم ولكنكم أهل له"

"الله أكبر، الله أكبر"

وانطلقت الخيل وقد نشرت الشمس ضوءها على استحياء في طريقهم، حتى وصلوا إلى شاطئ النهر:

"أنا لا أستطيع رؤيتهم بالبر الغربي يا أمير"

"لا أثر لمراكبهم هناك"

وشعر بضيق شديد:

"إلى القنطرة يا رجال"

انطلقت الخيل إلى القنطرة في سرعة:

"يا للهول لقد هدموا القنطرة خلفهم كي لا نستطيع المرور"

نزل الخبر كالصاعقة على ابن شهيد:

"نحتاج إلى وسيلة للعبور"

ونظر في حسرة إلى الجانب الآخر:

"أسرع بالله عليك يا ابن كليب"

والتفت إلى أحد رجاله:

"اذهب إلى أهل المدينة في المعسكر، واطلب منهم العون"

"ما الذي تريده يا أمير؟"

"أخبرهم أن المدينة آمنة، وأننا نحتاج لصناعة قوارب للعبور بها للبر الثاني"

"السمع والطاعة"

انطلق الفارس في سرعة ونظر ابن شهيد إلى آخر:

"أريد منك أن تحمل رسالة إلى الأمير عبدالرحمن بقرطبة"

"أمرك يا أمير"

"أريدك أن تصل إليه في أسرع وقت ممكن"

* * *

تدفقت جحافل النورمان على ساحل قبطيل جنوب إشبيلية، واجتمع زعماء العشائر حول القائد روفوس الذي تصدرهم وقال مبتسمًا:

"رائع لقد نجحنا في خداعهم"

"لعلهم الآن عاكفون على إيجاد طريقة ليتبعونا إلى الغرب، خاصة بعد أن قوضنا قنطرتهم"

"لقد كان هدم القنطرة فكرة جيدة وليم"

"لكن الاتجاه جنوبًا هو الرائع بحق يا سيدي فلن يخطر ببالهم أننا عدنا للجنوب"

"وعندما يدركون الخدعة سنكون قد سيطرنا على هذه المدينة"

نظر هلفدين بتشكك إلى القائد:

"وماذا عن حصونهم وجنودهم؟"

ضحك روفوس بصوت مرتفع:

"حصون"

وواصل ضحكاته المستفزة؛ حتى ظهر الضيق على وجه هلفدين:

"لا حصون هنا، لقد أخبرتني العيون التي أرسلتها أنه لا حصون هنا"

واستعاد وجه الصارم في لحظة واستطرد:

"أي من السهل أن نسيطر عليها، هل تفهمني هلفدين؟"

"نسيطر عليها، هل تريد البقاء بها؟"

"أريد أن أجعلها معسكرنا الذي ننطلق منه لامتلاك هذه البلاد"

تساءل لودبروك في سذاجة:

"لنمتلك ذهبها؟"

"أنا أريد ما هو أعظم من الذهب"

نظر إليه لودبروك في اندهاش:

"ولكننا كنا نسعى خلف الذهب"

"يسعى خلف الذهب من هو مثلك لودبروك؛ أما من هم مثلي فيسعون خلف المجد، المجد لودبروك، المجد هلفدين، إنه أعظم من الذهب"

ثم نظر إلى هلفدين:

"أليس كذلك هلفدين؟"

"عقلي يقصر أن يلاحق عقل روفوس العظيم"

"حقًا هلفدين؟ ظننت أنك خير من يفهم ذلك"

ملأ الغضب نفس لودبروك، ولكنه كتم

غيظه وهو يقول:

"المجد يعني الذهب"

"المجد أعظم من أن تفهمه لودبروك، هلفدين يستطيع أن يوضح لك هذا"

كادت نظرات لودبروك الغاضبة تفتضح، لولا أن تحول انتباه الجميع إلى وليم الذي تساءل:

"وكيف سيكون هذا المكان هو نقطة انطلاقنا؟"

"الأمر بسيط وليم، الأمر بسيط، سيطر على المكان، استقر به، شيد حصونك، تكاثر وابعث إلى بلادنا لإرسال المزيد من الرجال ثم ابدأ في اقتطاع الأرض قطعة قطعة، حتى تبتلعها بأكملها، أليس الأمر بسيطاً

كما أخبرتك وليم؟"

"ولكن هذا يحتاج إلى كثير من الوقت والجهد"

"وهكذا المجد لن تبلغه إلا بكثير من الوقت والجهد ، هذا فقط الذي يجعلك تبلغ أودين"

رد هلفدين باقتضاب:

"تستطيع أيضًا أن تبلغه بالموت"

"ماذا؟"

"أقول إن الموتى أيضًا سيبلغون أودين في فاهالا"

"الشجعان فقط هلفدين، الشجعان الذين سعوا إلى المجد"

رد وليم في حماس:

"يعجبني هذا سيدي، يعجبني هذا كثيرًا؛
كم أتوق للسيطرة على هذه البلاد؟"

"أنا سعيد بحماسك وليم، ليت الجميع مثلك"

قال لودبروك بخبث:

"ظننت أن هلفدين هو المقدم عندك"

"كلكم رجالي لودبروك، وكلكم عظماء عشائركم، هيا ليستعد كل منكم للهجوم وانتظروا إشارتي"

انطلق زعماء العشائر كل إلى عشيرته وأخذ روفوس يتمتم:

"التعامل مع هؤلاء شديد الخطورة"

سأله أقرب الرجال إليه:

"هل تقول شيئًا يا سيدي"

"فقط أفكر بصوت مرتفع".

وتابع الرجال وهم يبتعدون عنه لقد كان يرى في هلفدين أنه كالحيوان الشرس تحتاجه في حربك ولا تأمن جانبه، ووليم كالفرس الذي لو تركت له العنان لجمح بك، ولودبروك كالأفعى ناعم الملمس شديد السم، وعاد للتمتمة:

"أنا أفهمهم جيداً، لو لم أكن أمتلك القدرة على التعامل معهم وترويضهم لما استحققت أن أكون القائد روفوس العظيم"..

* * *

انشغل جميع أهل إشبيلية بإحضار الأخشاب والحجارة اللازمين لإنشاء قوارب وإصلاح القنطرة المتهدمة للمرور إلى الجهة الغربية من

النهـر الكـبير، لم يـدخروا جهـداً لفعـل ذلـك، وامتدت أيديهم إلى كل ما وقعت عليه أيديهم في سـبيل هـذا ، جنبًـا إلى جنـب مـع إخـوانهم جنـود قرطبة. وابن شهيد يتنقل بـين هـذا وذاك يعـين هـذا ويشـرح لـذاك كيـف يستطيع أن يفعـل مـا يفعـل، غير أن كل من رآه عرف أن هناك مـا يشغل بالـه، هنــاك مــا يـثير حيرتــه، أمــر غـامض لا يـستطيع تفسيره، لـو كـان المجـوس جـازوا إلى الغـرب فـأين مراكبهم؟ أيـن؟ سـؤال ظل يتردد في رأسـه. وانتبـه علـى صيحة أحـد الرجـال عنـدما سـقط في النهـر وهو يعمل في إصلاح القنطـرة واجتمـع النـاس حـول رفيقه الذي أخذ يهذي في ذعر:

"إنه لا يجيد السبـاحة، إنه لا يجيد السباحة"

قفز بعض الرجـال خلفـه لإنقـاذه، وتوجـه ابـن

شهيد إليهم وهم يحملونه على أكتافهم:

"ليحضر أحدكم ثيابًا جافة لهم"

بدأ الوعي يعود للغريق ونظر في رهبة إلى المحيطين به فقال أحد الواقفين معاتبًا:

"ماذا دهاك يا رجل؟ إن الجزء التالف من القنطرة قريب من الشاطئ أي أنك تعمل من على الشاطئ"

فأكمل آخر العتاب:

"أنا لا أعرف ماذا كنت ستفعل لو كان المجوس هدموها من الجانب الآخر؟!"

"كنت ستجد نفسك تعمل فوق قنطرة متهالكة بالقرب من نصف النهر"

"بالطبع كانت ستجرفه المياه بعيدًا، ولن يستطيع أحد اللحاق به"

تجمد ابن شهيد في مكانه وهو يستمع لحديث الرجلين، وبدا الوجوم على وجهه:

"ماذا دهاكما؟ لقد أغضبتما الأمير"

"اغفر لنا يا أمير"

لم يظهر على ابن شهيد أنه استمع إلى اعتذارهما وترك الجميع في صمت:

"ما الذي قلناه أغضبه إلى هذا الحد؟"

"لم نقل شيئًا"

ونظر في عجب إلى ابن شهيد الذي وقف أمام القنطرة، ثم صاح مناديًا رجاله فالتفوا حوله فسألهم:

"لو كانت القنطرة سليمة وعبرنا بها إلى الجانب الآخر من النهر وأردنا هدمها فمتى سنفعل ذلك؟"

"بعد أن نعبر كلنا"

"إذًا فمن يريد هدمها سيهدمها من الجهة الأخرى من الشاطئ بعد أن يتأكد من عدم حاجته إليها"

"بالطبع يا أمير"

"إذًا لماذا حطموا القنطرة من جهتنا؟"

"كيف لم ننتبه إلى هذا من قبل؟"

"لعلهم حطموها ثم عبروا بمراكبهم"

سأله ابن شهيد:

"وأين مراكبهم؟"

شعر الرجل بالحيرة فاستطرد ابن شهيد:

"إنني أتساءل عن هذا منذ الصباح"

"ما الذي يدور بعقل الأمير؟"

"لقد خدعنا المجوس"

"ماذا يا أمير؟"

"لقد أوهمونا أنهم متجهون إلى الغرب، أو أردنا نحن أن نصدق هذا بينما هم اتجهوا مع النهر إما شمالاً أو جنوبًا"

"إذًا فقرطبة قد تكون في خطر"

"أو أنهم رحلوا"

"لن نستطيع معرفة هذا ونحن واقفون ها هنا"

"بماذا تأمرنا يا أمير؟"

"لتذهب أنت مع النهر شمالاً ولتذهب أنت مع النهر جنوبًا، لتبحثوا عن مراكبهم"

"السمع والطاعة يا أمير"

وامتطى الرجال خيلهم، وانطلقوا في حين وقف ابن شهيد غاضبًا؛ لقد انطلت عليه خدعة المجوس، وسقط في شركهم.

* * *

لم تعد قبطيل كسائر عهدها القرية الهادئة جنوب إشبيلية؛ فقد عمتها الفوضى وملكها الخوف لخبر نزول المجوس بساحلها ، وانشغل كثير من أهلها بإعداد أنفسهم للفرار خاصة ، وقد كان بلغهم من أخبار إشبيلية ما يشيب منه الوليد ، وأدركوا أن مصيرهم لا محالة لن يختلف كثيرًا عما سمعوه من قبل، فازداد جزعهم، وانفرط عقدهم.

وسار أحد أهلها بخطوات حثيثة بين الأبواب المغلقة ، والوجوه المتجهمة ، وقد حمل سلاحه حتى وصل إلى أحد الأبواب فطرقه بقوة وهو ينادي صاحبه:

"يا عبدالله، يا عبدالله"

"من بالباب؟"

"أنا أحمد"

خرج إليه صاحب الدار والجزع بادٍ على وجهه:

"ماذا تريد؟ هل وقع أمر ما؟"

"إننا نستعد للقاء المجوس"

"من؟"

"وهل هناك غيرنا؟! رجال قبطيل"

ظهر الحسم على وجه صاحب الدار وهو يقول:

"انتظر حتى أحضر سيفي ودرعي"

لم يتأخر الرجل بالداخل وخرج مسرعًا يشيعه بكاء أهل الدار، وانطلقا بين بيوت قبطيل الكئيبة:

"هل أخبرت الجميع؟"

صمت أحمد ولم يرد

"ماذا هنالك يا أحمد لماذا لا ترد؟":

"لقد قرر الكثير منهم الفرار"

"لا تحزن، ليبارك الله في القليل"

"لقد اقتربنا من مكان التجمع"

"على بركة الله، وإنا لله وإنا إليه راجعون"

"هل أنت خائف؟"

"لا أعرف"

"ماذا تقصد؟"

"أشعر بشعور مبهم لا أستطيع تمييزه: هل هو خوف أم رجاء؟"

"هل تخاف الموت؟ إنها الشهادة يا رجل"

"أنا لا أخاف الموت، أنت تعرف يا أحمد

أنني لم أهب الموت طيلة حياتي"

"إذًا ما الذي تخافه أو ما الذي ترجوه؟"

"أخشى أن يصيب أهلنا وذوينا ما أصاب إخواننا بإشبيلية"

"لهذا قد خرجنا للجهاد"

"أخشى الهزيمة ، أخشى ألا يجد بيتي من يدافع عنه"

"كلنا هذا الرجل يا أخي، كلنا هذا الرجل"

وصمت كلاهما حتى اجتمعوا مع بقية المجاهدين

"السلام عليكم"

"وعليكم السلام يا أخي"

"هل نحن فقط من خرج للقتال من أهل

القرية؟"

"ليعيننا الله يا أحمد"

"إننا لم نتجاوز الخمسين رجلاً"

"إن الكثيرين يخشون لقاء المجوس لما سمعوا عن وحشيتهم"

"إذًا لننتظرهم حتى يذبحونا"

"إن الذبح ينتظرنا في كل الحالات"

أمسك عبدالله سيفه في اعتزاز:

"أما أنا فلا أذبح، من أراد أن يأخذ شيئًا مني فليمزقني إربًا أولاً"

"فقط لو يصل خيل قرطبة"

"وكيف يعلم الحاجب ابن شهيد بما نحن فيه، إنه مشغول بإشبيلية"

"لقد أرسلت إليه بإشبيلية"

"انظروا ما هذا؟"

"يبدو أنهم يستعدون للهجوم"

"إنا لله وإنا إليه راجعون"

"اصطفوا يا رجال"

"الله أكبر إني أشم رائحة الجنة"

"الله أكبر، الله أكبر"

* * *

راقب روفوس الرجال المحتشدين أمام قبطيل في عجب:

"هل يظن هؤلاء الحمقى أنهم قادرون على ردنا بمثل هذا العدد الهزيل؟"

"هذا ما يثير دهشتي في أهل هذه البلاد منذ قدمنا إليها يا سيدي"

"إنهم عنيدون بشكل غير مألوف"

"أو أنهم حمقى كما قلت من قبل يا سيدي"

رفع روفوس رأسه كأنما يبحث عن شيء في الأفق، وما هي إلا لحظات حتى استطاع تمييز أحد رجاله، وقد أقبل على فرس من جهة المدينة

"سيدي القائد"

"لقد بدأ أهل المدينة بمغادرتها"

"نعم يا سيدي"

"إذًا فقد حانت اللحظة المناسبة للهجوم"

ودار ببصره كأنما يبحث عن شيء ما

"وليم انطلق أنت براكبي الخيل؛ لتلحقوا بالذين يحاولون مغادرة المدينة"

"هل نأتيك بهم يا سيدي؟"

"النساء والصبيان فقط، واقتلوا الرجال"

"أمرك يا سيدي"

"واعلموا أن هؤلاء ولا بد أنهم قد خرجوا بكل ثمين"

"إنهم صيد سهل يا سيدي"

وانطلقت الخيل كالسهام في اتجاه المدينة، في حين التفت القائد إلى باقي النورمان:

"الآن يا رجال الشمال الشجعان قد حانت لحظة الهجوم، فهنيئًا لكم هذه المدينة"

تصايح الجميع في ظفر:

"لتصبح هذه المدينة قاعدة لنا حتى نمتلك كل هذه الأرض العامرة بالخيرات"

ونظر إليهم وهم يترقبون كلماته:

"انطلقوا الآن"

انطلق النورمان في قوة بصرخاتهم التي تصم

الآذان، وبوقهم المنفر في اتجاه قبطيل، لم يكن أمامهم سوى الخمسين مجاهدًا الذين اصطفوا في شجاعة يشاهدون الشمس التي قد شارفت على المغيب أمام أعينهم.

* * *

نظر أهل إشبيلية في وجوم إلى الرجل الذي دار في ذعر بين جنبات المدينة المهدمة، وهو يتساءل عن ابن شهيد فاستوقفه أحد جند قرطبة فأعاد عليه سؤاله:

"أين أجد الحاجب ابن شهيد؟"

"من أنت يا رجل؟ ولماذا تسأل عن الحاجب ابن شهيد؟"

"أنا من قبطيل، لقد هاجم المجوس قريتنا"

"أسرع خلفي يا رجل"

سار الرجل خلف الجندي مبهوتًا:

"هل فعل المجوس بإشبيلية كل هذا؟ يا ويل قبطيل، يا ويل أهل قبطيل"

"الرجال لا يبكون يا هذا الرجال يقاتلون حتى الموت"

واصل الرجل انتحابه بين نظرات أهل المدينة الشاحبة

"ها هو الحاجب عيسى بن شهيد بين الرجال"

انطلق الرجل، وانكب على يد ابن شهيد:

"أغثنا يا أمير"

"انهض يا رجل، ماذا هنالك؟"

"لقد دخل المجوس قبطيل"

"قبطيل؟"

ونظر إلى المحيطين به:

"لقد اتجه المجوس جنوبًا؛ المراكب في الماء

بالرجال والغنائم، والخيل من على الشاطئ"

"سيدي انظر"

نظر ابن شهيد حيث أشار الجندي ليرى فارسًا قد أقبل من الجنوب في سرعة، وما إن اقترب حتى عرفه ابن شهيد

"إذًا لقد تأكد الأمر"

نزل الفارس أمام ابن شهيد:

"إنهم يحتشدون أمام قبطيل تركتهم يستعدون لاقتحامها"

"وأهل قبطيل؟"

"عدد قليل يحتشد أمامها للقتال لم يتجاوز الخمسين"

"إنهم رفاقي يا أمير"

"استعدوا للخروج لنجدة قبطيل"

"وإشبيلية يا أمير؟"

"والشمس التي هوت خلف الأفق؟"

"عبد العزيز أنت ستبقى بفرقتك مع أهل إشبيلية والمجاهدين هنا، وحسان سيعينك على تدبر الأمر"

"السمع والطاعة"

"أما بقية خيل قرطبة فستخرج معي إلى قبطيل"

ونظر إلى الرجل القادم من قبطيل:

"ليس من الحكمة أن نخرج دون استعداد هائمين على وجوهنا في الظلام"

وصمت قليلاً وشرد ببصره إلى الجنوب ثم التفت إلى رجاله:

"سنخرج مع ظهور ضوء الفجر يا جند قرطبة"

ثم التفت إلى الرجل في وجوم:

"ولنسأل الله العون والرحمة لأهل قبطيل"

* * *

كان غروب الشمس يضفي ظلالاً مهيبة على فحص الشَّرْف بتربته الحمراء، وأشجار الزيتون التي امتدت لتغطي السهل بأكمله، ومن خلال الأشجار استطاع عبدالله بن كليب أن يميز القرى الكثيرة التي تناثرت خلاله من الأضواء المنبعثة من دورها عند نزوله بالفحص مع جنوده، وبدأ يتساءل من أين ستكون البداية؟ ماذا سيفعل هنا؟ وأين سينزل مع الجند؟ وتقدم أحد رجاله بفرسه ليجاوره أثناء السير:

"لقد وصلنا إلى الشَّرْف يا أمير"

"أعرف إنكم مرهقون وتحتاجون للراحة"

"ليس الأمر كذلك يا أمير، ولكننا قطعنا الطريق في قلق من وصول المجوس إلى الشَّرْف

قبلنا ، والمخاوف تحدونا مما قد يفعلونه بأهل القرى بالشرف"

"ولم نجد شيئًا ، اتريد أن تقول هذا؟"

"لم أقصد هذا يا أمير، ولكننا لم نقابل سوى قرى آمنة مطمئنة في حين أن المجوس كانوا أمامنا بإشبيلية"

"إنها رحمة الله، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها انتظر حتى مالت الشمس ثم قام في الناس خطيبًا قال: أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية؛ فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف"

"صلى الله عليه وسلم، أنا أفهم هذا جيدًا يا أمير ولكن إخواننا بإشبيلية كانوا أولى بالنصرة".

"هناك من دعاهم القرآن بالذين يستنبطون الأمر، وأمرنا بالرجوع إليهم قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٨٣]

وابن شهيد من هؤلاء، وهو يرى أن المجوس سينزلون بالشرف، وإن تأخر هذا فهو رحمة من الله"

"السمع والطاعة يا أمير"

"دعنا الآن نعسكر هنا وننتظر الصباح؛ فالله وحده يعلم ما الذي سنلاقيه غدًا"

"أمر الأمير"

وما كاد الجندي يوشك على الرجوع لأصحابه بأمر ابن كليب؛ حتى استوقفه مرة

أخرى:

"بلغهم بالأمر وعد إليّ أنا أريدك في أمر هام"

"السمع والطاعة يا أمير"

نزل ابن كليب من على فرسه، وعينه تدور بين أرجاء المكان حتى عاد إليه الجندي الذي كان واقفًا معه:

"سنتوجه غدًا إلى النهر الكبير ونسير بمحاذاته حتى نجد مراكب المجوس"

"وفي حالة أن نجدها في البر الشرقي؟"

"سنبحث عن طريقة للمرور إليهم لنهاجمهم من الخلف"

"إن ما يشعرني بالقلق أن ظهورنا سيثير ذعر الناس بقرى الشَّرْف؛ لأنهم سيتوقعون أن وجودنا مرتبط بهجوم وشيك للمجوس"

"إن ما حدث في إشبيلية جعل الأندلس كلها تتوقع مثل هذا الهجوم"

"ولكن وجودنا سيزيل جدار الأمل الواهي الذي يحتمي به البسطاء"

"إن هذا يقودنا إلى أمر ضروري أردت أن أنبهكم إليه"

"ما هو يا أمير؟"

"يجب أن يشعر الناس بالثقة عند رؤيتنا"

"وكيف يكون ذلك؟"

"النظام والهدوء والسكينة والثقة البادية علينا خلال الطريق، والأهم المعاملة الطيبة مع الناس، المعاملة الطيبة مع الناس"

"وهل يسيء الأمير الظن برجاله؟ إن رجالك كلهم -ولا نزكي على الله أحداً- من أتقى الناس"

"فقط أذكّر، وكما تعلم فإن الذكرى تنفع

المؤمنين، خاصة وأن الجنود قد تأخذهم العزة أحيانًا، والرغبة في الانتصار لأنفسهم من موقع القوة"

"تستطيع أن تثق برجالك يا أمير"

"تستطيع أن تذهب أنت لتستريح، ولا تنس أن تنشر بينهم حديثنا بهدوء، لتكون نفوسهم مستعدة له عندما أحدثهم به في الصباح"

"السمع والطاعة يا أمير، ألن تذهب للنوم يا أمير؟ فلقد حل الظلام"

"بل سأنتظر قليلاً"

وترك الجندي عبدالله بن كليب بين أفكاره، وظل يتساءل في حيرة: ما الذي جرى لابن شهيد ولخيل قرطبة؟ ما الذي جرى؟

* * *

غفلت عين كارلوس، وسقط في جب النوم

وسقط من يديه الورق، واختلطت عليه الرؤى وشعر أن القصة قد اقتحمت عليه أحلامه، في حالة أشبه ما تكون بالهلوسة بين صرخات ورجال وضربات بالسيوف، ولكن كل ما ذكره في الصباح أن هناك من هزه بقوة وهو يقول: هيا استيقظ إن المعركة تنتظرك بفحص الشرف، هناك في سهل الزيتون.

محمد عبدالفتاح حسين عيسى

٢٠٠٨/٥/١٨